المسؤولية

جواد



محمد أمين المصري

المسؤوليّة

عقبات في سبيلنا

من المسؤول عن تخلفنا ؟

بين التربية الحديثة والتربية الإسلامية

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

نشر وتوزيع
دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم : محمد سليمان

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد :

فإن الدعوة للإسلام ــ وبعد عشرات السنين ــ لا تزال بحاجة إلى وضوح أكثر في الأساليب والغايات ، في الثقافة المطلوبة في نوعية التربية ...وغير ذلك من الأمور التي كان من المفروض أنها قد حددت ولم يعد هناك خلاف حولها . ولكن يظهر أن البيئة التي نعيش فيها : بيئة المنزل والمدرسة والمجتمع لها تأثير علينا ولم نستطع التخلص منها بالكلية .

عاش فضيلة الشيخ محمد أمين المصري هذه الفترة مدرساً في الجامعة ، مشاركاً في الفكر والثقافة ، موجهاً للشباب وكان له

نظرات تخالف نظرات الآخرين ، وأستطيع أن أقول : له شخصيته المستقلة في كثير من آرائه ، سواء في موضوع التربية أو الثقافة المطلوبة أو الرجال الذين يستطيعون حمل الأمانة .

وقد عشت مع فضيلته رحمه الله السنوات الأخيرة من عمره المبارك ، وهي السنوات التي كان فيها رئيساً للدراسات العليا بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة . وأعتقد أن هذه السنوات كانت من أخصب سني حياته ليس من الناحية العلمية فحسب، ولكن من ناحية القلق والألم على ما آل إليه المسلمون في الوقت الحاضر ، وتحريض الشباب على العمل ، والتشديد على موضوع التضحية والجهاد .لقد كان شديد النقد لنفسه ولحاملي لواء الدعوة الإسلامية بأنهم ليسوا على المستوى المطلوب ، وأنهم لم يقدموا كل ما عندهم في سبيلها ، ولو قدموا لكانوا معذورين ، وأما الاعتذار بالواقع وأنه ليس بالإمكان أفضل مما هو موجود ، هذا الاعتذار كان مرفوضاً عند الشيخ . والفكرة التي كانت تؤرقه هي : أين الرجال الذين يتحملون المسؤولية ، الذين بلغوا من الإخلاص والفهم والتضحية والثقافة مبلغاً يرفعوا به هذه الأجيال إلى المستوى المطلوب . وكان زائروه وتلامذته يلاحظون أن هناك مواضيع كان يلح عليها ويكررها ولا يسأم من تكرارها. ويمكن أن نستخلص من مجموع ما كتب ودرس وحدث بعض ركائز أفكاره وهي :

اولاً :

موضوع التربية ، والتركيز على تربية المنزل وتربية الأم بالذات ، ويستشهد بصحابيات قدمن أولادهن للمعارك الإسلامية مثل الصحابية الجليلة عفراء ، ويقارن بين هذه التربية وتربية الأمهات في هذا العصر والتي من أقصى أمانيها أن يتخرج ابنها موظفاً أو طبيباً ، وتصور له الحياة بأنها العيش الرغيد و لايخطر على بالها أن تربي ابنها على الجهاد .

كما يتحدث كثيراً عن تربية المدرسة وينتقد طرق التربية التقليدية التي لا تزال في مدارسنا وجامعاتنا كنظام الامتحانات الذي يجعل الهدف من التعليم هو النجاح والشهادة بدل أن يجعل الهدف هو حب العلم .

ثم ينتقل الشيخ إلى تربية الشباب سواء في المدرسة أو المسجد أو المجتمع ، ويؤكد هنا على ضرورة تربيتهم تربية القادة لا تربية العبيد ، تربية الاستقلال لا تربية الخضوع والخنوع والمريدين بكل ما في الكلمة من معنى . فإن البعض يعجبه أن يتعلق به الأتباع تعلقاً أعمى ، ويحلو لهم مغالاة الأتباع في تعظيمهم ويغلب على هؤلاء الأتباع نسيان الفكرة ويصبح التعلق بالشخص ولو انحرف عن الفكرة .

بينما التربية التي يريدها هي (التربية القرآنية كما ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فكان لا يمتاز عنهم بشيء من مابس أو مظهر أو مكان .. وكان يكره أن يقوم له أصحابه

وكان يستشيرهم في كل مناسبة ، وعمل برأي الحباب بن المنذر في بدر وسلمان الفارسي في الخندق ويقول لهم : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم » .

ثانياً :

الجهاد الذي تركه المسلمون وحوّره وبدّله المتعالمون المنهزمون أمام ضغط الواقع وضغط الاستشراق الخبيث، وللشيخ هنا كلمة مأثورة وهي : (إن الطفل في الأسرة المسلمة يجب أن ينام على أحاديث الجهاد ويستيقظ عليها) . ولذلك كان الذين لا يعرفونه يظنون أنه لا يتقن غير تفسير سورة الأنفال ، وإنما كان يكررها لتأكيد هذا المعنى ، كما كان يكثر من تفسير سور : آل عمران والتوبة والأحزاب لتضمنها صور المعارك الكبرى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وله أبحاث قيمة في مثل هذا الموضوع مثل بحثه حول الحديث الضعيف أو الذي لا أصل له « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، وكيف أثر هذا الحديث وأمثاله على نفسية المسلمين[1] .

ثالثاً :

الأخطار الداخلية : هناك أمراض أصيب بها المسلمون ، هي أمراض نفسية وعقلية تنخر في كيانهم وتسبب لهم الضعف . هذه

---

(١) قال عنه ابن تيمية : لا أصل له ونقل كلام ابن حجر عنه قال : هو من كلام ابراهيم بن عبلة .

الأمراض هي الخطر الداخلي • إن أكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه وأن يلقي التبعة دائماً على غيره، ويعلق أخطاءه على مشجب الآخرين ، وهذا يريحه من تأنيب الضمير وعتب العاتبين•ومن أكبر المصائب أن نبرر أخطاءنا ولا نعترف بها ، نبررها بأسباب سطحية تافهة ، ونسوغ ما نحن فيه ولا نعترف بعجزنا ، ونلجأ إلى خداع النفس لكي نتهرب من الواقع• ومن المصائب أننا لا نبحث أمورنا بشكل جدي ، بل نبحثها على مستوى السمر والتسلية وهو مرض استسهال الأمور •

يقول رحمه الله في أحد بحوثه :

« اليأس القتال والخور المميت والثقة المفقودة كل هـذه هي العدو الحقيقي والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين أما العدو الخارجي فأمره يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا » • هـذا الموضوع كان يستأثر باهتمام الشيخ لأنه يعتبر الأخطار الداخلية هي السبب الرئيسي لما حصل للمسلمين على مر العصور من تخلف • وأعتقد هنا أنه في هذا الموضوع قد استفاد من كتابـات المفكر الجزائري « مالك بن نبي » في سلسلة كتبه «مشكلات الحضارة» والتي تكلم فيها عن دورة الحضارة عند المسلمين •

رابعاً :

كما كان ينعي كثيراً على المسلمين الفهم غير الصحيح لبعض

أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيات القرآن الكريم ، بحيث أنهم يجعلون من هذه الأحاديث تكأة لعجزهم وضعفهم فيوردون أحاديث الفتن ، وأن الأمر ليس له مرد ، وأن كل زمان أسوأ من الذي قبله ولذلك فلا داعي للعمل والتبليغ ، هذا عدا عن احتجاجهم بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التي توهن العزائم وتبرر القعود .

خامساً :

لا بد من قلة تنفيذ الموقف . قلة هي النخبة التي تستطيع حمل الأمانة ، وحمل الأمانة بنفسه يفجر الطاقات . هذه النخبة يصفها في أكثر بحوثه ، يقول في رسالة « المعاني الدخيلة على التربية الإسلامية » : « فالأمة التي يفقد أبناؤها حمل الرسالة تفقد معاني الجهاد وتفقد قيمة الحياة . وحين لا يكون للأفراد رسالة يشغل الخواء القلب وتمتد الشهوات وتستعلي الغرائز » . ويقول أيضاً من بحث حول تربية القادة : « إن حمل الرسالة يعطي الفرد قوة ما كان ليحلم بمثلها في الحالات العادية ، والشعب في حال حمل الرسالة يستمر في النهوض فاذا فترت هذه الروح كان سيره بقوة الدفعة الأولى إلى حين » .

هذه بعض الأفكار الرئيسية التي كان الشيخ يهتم بها ، ويكفي أنها ناصعة صحيحة ولا يزال المسلمون بحاجة إلى سماعها وفهمها . وهذه لمحة موجزة عن حياته رحمه الله :

- ولد في عام ١٩١٤ في مدينة دمشق وبعد إنهاء دراسته الثانوية عمل في سلك التدريس •
- في عام ١٩٤١ ذهب إلى القاهرة للدراسة في كلية أصول الدين فيجامعة الأزهر وبقي هناك أربع سنوات حصل بعدها على الشهادة الجامعية ثم عاد مدرساً في ثانويات دمشق لمدة عام واحد رجع على أثرها للقاهرة مرة ثانية فحصل على تخصص التدريس وعاد مدرساً في ثانويات دمشق •
- ١٩٥١ عين ملحقاً ثقافياً لسفارة الجمهورية العربية السورية في باكستان وبقي هناك خمس سنوات وقد اضطلع خلال هذه الفترة بجهود مشكورة في نشر اللغة العربية بين أبناء باكستان وله كتاب في تعليم اللغة العربية لغير أهلها •
- ١٩٥٦ سافر إلى بريطانيا للتحضير لرسالة دكتوراه وحصل عليها عام ١٩٥٩ وكان موضوعها (معايير النقد عند المحدثين) ورجع مدرساً في كلية الشريعة في جامعة دمشق •
- ١٩٦٥ • سافر إلى المملكة العربية السعودية للتدريس فيجامعة الملك عبد العزيز ــ كلية الشريعة ــ في مكة المكرمة وقد شارك في تأسيس قسم الدراسات العليا فيها ، وقبل وفاته بثلاث سنوات انتقل إلى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة رئيساً للدراسات العليا فيها ، وكان له دور في وضع مناهجها •

- توفي رحمه الله في شهر رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق لعام ١٩٧٧ على إثر عملية جراحية أجريت له في أحد مستشفيات سويسرا ونقل جثمانه إلى مكة المكرمة ودفن هناك ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وجزاه الله خيراً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

٢٤ ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ

محمد سليمان



المحاضرة الأولى

عقبات في سبيلنا

— ١ —

طبيعة العقبات التي تعترض الدعاة

الأعداء في الخارج يرقبون حركات المسلمين ويتربصون بهم الدوائر ويكيدون لهم كيداً ويمكرون بهم مكر الليل والنهار ، ومرجع هذا الصراع إلى عصور مترامية تمتد الى الحين الذي دكت فيه عروش القياصرة والأكاسرة وامتد حكم الاسلام الى أطراف العالم : فهنالك الحركة الصليبية ، وهنالك الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي وهؤلاء جميعاً يختلفون فيما بينهم ولكنهم يصطلحون على حرب المسلمين ، ويجمعون أمرهم كيلا تقوم للمسلمين قائمة ولا تجتمع لهم كلمة . **ويعتبر هذا الجانب خارجياً،** وهو — وإن بلغ ذروة الكيد — ليس أكبر الجانبين أهمية بل هو — كما سنرى — **نتيجة تابعة للعامل الثاني الذي هو الجانب الداخلي وهو المجتمع الذي يعيش فيه المسلمون،** وهنا نجد عقبات في الأفراد أنفسهم وفي تنشئتهم وتربيتهم .

وليس من شك في أن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين

اليوم كامنة في النقص في تربية أفراد المسلمين أنفسهم ، والضعف الذي أصيب به شبانهم •

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد بنفسه ، ذلك لأن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قويـة تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للحوادث •

ومن عادة الضعيف أن يلقي بأسباب ضعفـه على عوامـل خارجية يدّعي أنه لا يملك التصرف فيها ليسوغ لنفسه ما هو فيه، ولقد اعتدنا أن نفعل ذلك وأن نلقي تبعات ما نحن فيـه مـن ضعف وتقصير على الاستعمار أولاً ، وعلى الماضي ثانياً ، وعلى مجتمعنا ثالثاً ، ولا يخطر ببال أحدنا أن يجعل نفسه مركز الاتهام بينما يجعل القرآن العامل الأساسي فيما يصيب الانسان من مصيبة هو نفسه ، قال تعالى :

((أوَلمّا أصابتكمْ مصيبةٌ قدْ أصبتهم مثليْها قلتمْ أنّى هذا قلْ هوَ منْ عندِ أنفسكمْ)) (١) •

يبين الله تعالى بشأن بني النضير حين غلبهم المسلمون أنهم أتوا من حيث لم يحتسبوا وكان ذلك من قِبَلِ أنفسهم • قال تعالى :

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٥ •

« ما ظننتمْ أنْ يخرجوا وظنوا أنهمْ مانعتهمْ حصونهمْ منَ اللهِ فأتاهمُ اللهُ منْ حيثُ لمْ يحتسبوا ، وقذفَ في قلوبهمُ الرعبَ يخربـونَ بيوتهـمْ بأيديهـمْ وأيديْ المؤمنـين فاعتبروا يا أولي الأبصار » (١) .

لم يؤت هؤلاء من نقص فيذخيرتهم أو عددهم أوحصونهم، ولكنهم أتوا من قِبَلِ أنفسهم أيضاً . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ولينزعنَّ اللهُ من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) .

الحديث الكريم يخبر عن سنة عميقة من سنن الاجتماع تبين ماتنتهي إليه الجماعة حين تفسد فطرتها وتملأ الدنياقلوبأفرادها، ولقد كشف هذه الحقيقة الباحثون المحدثون لدراسة الجماعات وعوامل انحطاطها . قال احد هؤلاء : **إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاطٍ داخلية" لا خارجية** . وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، انمـا اللـوم على الشجـرة النخرة نفسها .

---

(١)سورة الحشر الآية ٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم رقم ٤١٢٩ .

والقــرآن الكريــم يهدي إلى هذه السنة ويبــين للناس **بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه الى الناس انفسهم وما كسبت أيديهم** ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم يقول تعالى :

((وما ظلمناهمْ ولكنْ كانوا أنفسهمْ يظلمون))(١) •

والأمــة التي تصــاب بأبنائها هي التي تتعرض للمصائب والنكبات وتصبح عرضة لغزو العدو • فهي إذن عوامل ثلاثــة تعمل معاً : عدو خارجي متربص ومجتمع وأفراد والمكانة التي تشغلها الأمة من محصلة هذه العوامل الثلاثة ، فقد تكون بسبب ضعفها الداخلي مغزوة من الخارج وقــد تكون بسبب قوتهــا الداخلية وتماسك مجتمعها غازية في الخارج •

وليست الحياة إلا صراعاً تقاوم فيه الصعوبات التي تتحدى الفرد والجماعة ثم تكون الغلبة والانتصار أو الاستسلام والهزيمة •• تلك سنة الله منذ بدء الخليقة •

التداخل بين العاملين الداخلي والخارجي :

ولقد بلغ الضعف بالمسلمين أن وصل الأعــداء ــ لا الى الدس في صفوفهم فحسب بل ــ الى محاولة تغيير عقول المسلمين

---

(١) سورة هود ــ الآية ١٠١ •

ونفوسهم ، أي أن العامل الخارجي اتهى الى مس العامل الداخلي والتأثير فيه وذلك غاية ما يمكن أن يصل اليه العدو من النكاية.

يقول شاتليه في مقدمة كتابه الغارة على العالم الاسلامي :

« ينبغي لفرنسا أن يكون عملها فيالشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية. ويشرح هذه الجملة فيقول : أي يجب التأثير على عقول أبناء الشرق وقلوبهم . ثم يقول المؤلف : وهو غرض لا يمكن الوصول اليه الا بالتعليم الذي يكون تحت اشراف الجامعات الفرنسية » .

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في صحيفة العروة الوثقى ص ٥٦ :

« أقول ولا أخشى لوماً إنه لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عندما تغلب على بعض أراضيها الانكليز لما بارحوها أبد الآبدين » . ويريد بالطلائع الشبان الذين ربوا في أوربة أو في المدارس الحديثة .

مما سبق يتبين أن العامل الفردي أصل العوامل الثلاثة وأقواها في ضعف أمة أو قوتها . ولقد أشرنا فيما سبق اشارة عابرة الى العامل الخارجي وأثره في تفكير المسلمين فلنشرع بدراسة العامل الداخلي .

ان لسلوك الفرد مظاهر ثلاثة . فكرية ووجدانية وارادية . فلنبحث عن الطابع الذي طبع عليه أفراد المسلمين في كل من هذه المظاهر الثلاثة على أن لا ننسى أن هذه النواحي الثلاث لا ينفك بعضها عن التداخل في بعضها الآخر وتأثير بعضها في بعض .

١ ـ الجانب الفكري :

السطحية في التفكير :

الأمر الذي يواجه الملاحظ بوضوح وجلاء في هذه الأمة وفي أعمال أبنائها وفي خلقهم وفي عباداتهم ومحاولاتهم : هـو السطحية في التفكير • ويشكو كثيرون من الحيرة التي تحيط بهم ومن عدم وضوح مخططاتهم وأفكارهم • ومرجع هذا كله الى هذا الطابع طابع السطحيـة الـذي وسـم به التفكير وطبعت عليه الشخصية •

بعض مظاهر السطحية في التفكير :

تبدو هذه السطحية لدى طلاب الجامعة بشكـل جلي ، فالبحوث التي يقدمونها لا تزيد عن نقل فقرات من المصادر التي توضع بين أيديهم غير شاعرين بوجـود مشكلة يجب وضـع حلولها ، ولا باحثين عن العوامل التي أدت الى المشكلة والأسباب العميقة التي انتهت اليهـا ، ولا ينتابهم شك في صحة الحقائق التي وصلوا اليهـا • ولذا فهم لا يبحثون عن معايير لاختبارها ووزنها بموازين تثبت نقاءها وصحتها أو زيفها وبهرجها •

السطحية في التفكير تؤدي الى عدم بحث الأسبـاب التي

أدت إلى النتيجة بحثاً كاملاً مستوفياً ، فاذا اقتصر البحث في دراسة شخصية من الشخصيات مثلاً على ذكر الوقائع التي تمت لهذه الشخصية والحوادث العظيمة التي أنجزت على يدها ، دون رجوع إلى العوامل النفسية والدوافع الداخلية التي كانت الباعث الى القيام بهذه الأمور ، كانت الدراسة سطحية ولم تكن عميقة مستوفية ، وإذا لم تحلل هذه العوامل والدوافع تحليلاً كاملاً ، ولم ترجع الى عناصرها الفطرية الوراثية والعناصر التربوية الاجتماعية كانت أيضاً سطحية غير عميقة مستوفية .

تتجلى السطحية لدى أبناء المسلمين في أحاديثهم ودراساتهم وسلوكهم وأهدافهم وفهمهم للحياة وتتجلى في الدراسات العلمية في العصور المتأخرة في حل المشكلات التي تعترض الباحث حلاً أقرب الى التسوية الملفقة منه الى المعالجة الصحيحة ، حلا بعيداً عن تقصي المسألة والبحث في جذورها وأعماقها بل هو بحث يبدو أن الغرض منه اسكات السائل واقناعه بوسيلة ما ، لا الانتهاء بالبحث الى صلب الحقيقة واقتلاع جذور الشك من أعماقها .

وتنتقل هذه السطحية الى الشخصية كلها والى سلوك الفرد والى تفكيره الخلقي والديني والى عبادته فيأتي بأمور متناقضة ولا يبالي بتناقضه .

ذكر أحد الاخوة أن أحد العلماء في دمشق كان يدعو الناس دعوة حارة الى عدم المغالاة في المهور وجاء دوره وخطبت ابنته

فغالى كما يغالي الناس، فذكره تلميذ له بما كان يقول فكان جوابه أتكون ابنته أقل من ابنة فلان وفلان. ولم يستطع الشيخ أن يذكر دعوته السابقة ، ومناقضة قوله لعمله ، ومكانته في القيادة وأن عليه اتباع الحق وان كان الناس على غيره ، ولم يبال الشيخ بما وقع فيه من تناقض ولم يشعر بعظم خطأه وسخف سلوكه والعامل في كل هذا سطحية التفكير وتبلد الاحساس .

وهذا المثال ينطبق على كثير من المسلمين ويبدو أيضاً بأننا نظهر الاهتمام في الأمر ونحن في أعماق نفوسنا معرضون عنه كارهون له ، ولا يستطيع الأكثرون أن يصلوا إلى إدراك ما هو مستقر في أعماق نفوسهم ولذلك يأتون بالأمور المتناقضة ، ولا يشعرون ، وأول واجبات المربي في مثل هذه الحال الكشف عن هذا الخبيء السيء،وهذا ما يفعله القرآن الكريم عندما يبين عناصر هذه النفس الكامنة وبذلك يحمل الانسان على عدم الاكتفاء بالظواهر الخارجية ويدفعه إلى العكوف على استبطان الحقائق النفسية العميقة ودراستها .

اعتذر المنافقون بقولهم :

« شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفرْ لنا » (١) .

---

(١) الفتح الآية ١١ .

وغابت عنهم خفايا نفوسهم واعتذروا بأن بيوتهم عــورة فقال لهم القرآن :

« وما هيَ بعورةٍ إنْ يُريدونَ إلا فراراً »(١) •

وهم يحسبون أنهم يخادعون الله وما يخدعون إلا أنفسهم• وما الحيل الشرعية إلا مثل من أمثلة السطحية وعــدم التمييز بين حقائق الأمور وقشورها •

ولقد سرت السطحية إلى العبادات ففقدت روحها وحقيقتها، كما سرت إلى النواحي الخلقية ففقدت أيضاً حقيقتها ، وكان من تنيجــة ذلك أن تدنى الفــرد المسلم إلى دركات دون المستوى الاسلامي الصحيح •

ويقترن بالسطحية سرعة تقبل الأفكار التي تلقى وان كانت مغلوطة أو منحرفة • وهكذا يتقبل طلاب الجامعة كل مــا يلقى اليهم وان كان غامضاً لأن غرضهم من المعلومات ما يكفل لهم النجاح•

وكذلك تقترن السطحية بالأفكار الغامضة فتقبل الأفــكار الغامضة دون تمحيص لها ودون شعور بغموضها ، لأن الاستزادة من البحث والتعمق فيه والاحاطة بأسبابه كل هذه تزيد الموضوع بسطاً وتزيده وضوحاً •

---

(١) الاحزاب الآية ١٣ •

ويسهل أيضاً مع السطحية تقبل الأفكار الخاطئة والدعايات الكاذبة وقد دخل الأعداء من هذا الباب وافتنوا باللعب بسياسة المسلمين وتدمير مجتمعاتهم ، والمؤسف أن المسلمين لا يعلمون شيئاً مما يجري بهم •

ومن هذا ما فعله يهود الدونمةفي تركية حين أعلنوا اسلامهم في ظل سيطرة الدولة العثمانية على البلقان واستطاعوا الوصول الى المراكز الحساسة في قصر الخلافة واستطاعوا أن يقوضوا بنيان الخلافة •

ومما يلفت النظر أن يتحدث سامي الجندي في كتاب له اسمه « يهود عرب » عن هؤلاء اليهود في الماضي فيتحدث عن الأصل اليهودي لجاويد وطلعت ومصطفى كمال ثم يقول :

« في كل مرة تتجدد فيها معالم القضية الفلسطينية ندرك بأنفسنا وبطريقة غامضة نقطة خفية غائبة عن أذهاننا ••• لنجد الضباب مخيماً على الطريق الذي تتحسس السير فيه وتضيع معالمه ويخفى كل شيء في جو اللامعقول »•

ولقد انحرفت المعاني الاسلامية عن سبيلها السوي وأصبح اعتقاد أكثر المسلمين أن أعلى درجات الايمان لزوم المساجد لتلاوة الأذكار وحضور حِلَق الذكر ، والقلوب غافلة عن ذكرها ، معرضة عن الاهتمام ببذل جهد لتغيير أي منكر ، وفوق ما ذكر الاحتجاجُ بالقدر حيث يجب الفزع إلى بذل النفس والمال ،

وحيث يجب الجهاد في سبيل الله • والى جانب هذا غرور بالنفس وشعور بالكمال ولكنه كمال العقم أو كمال الموت •

انحراف في المفاهيم ، وعدم وضوح في المعاني الاسلامية ، وعدم وضوح في الوسائل التي تؤدي إلى هذه المعاني ، وإيمان خامد هامد لا يدعو إلى بذل ، وببغائية : ونعني بها ذكر الألفاظ والتبجح بها وترديدها دون ادراك عميق لمدلولاتها •

ويقترن بكل هذا أيضاً ضعف القدرة على التخطيط لمواجهة المشكلات وايجاد الحلول الصحيحة لها • ولقد زعم المستشرق « جب » أن هذا النقص فطري لدى الأمة الاسلامية ،والواقع أن مرجع ذلك إلى التربية التي يتلقاها أبناء هذه الأمة •

وهكذا نرى سطحية التفكير لا تظل مقتصرة على هذه السطحية ولكنها تقترن بمضاعفات عدة •

العوامل التي أدت الى السطحية :

ليس من شك أن لعامل الزمن دخلا في سطحية التفكير التي مُنيَ بها المسلمون • ونعني بعامل الزمن ، الركود الذي استسلم له الفكر الاسلامي على مر الزمن • وكانت العوامل في هذا الركود الفكري شتى متنوعة : قد يكون للحكام الذين لم يكونوا في مستوى القيادة نصيب كبير منها ، يضاف اليه عامل العلماء الذين

ساروا بركاب هؤلاء الحكام . ولكن الأمر الهام وضعنا الحاضر وما نحن فيه . ان المدارس الحاضرة هي التي تقوم بمهمة التربية وتوجيه الأجيال فهل هي في البلاد الاسلامية على مستوى الحاجة؟ هل يجد الطالب في مدارسنا التفتح الذهني المطلوب؟وهل يتوسد منصب التدريس في البلاد الاسلامية المربون الصادقون في اسلامهم المخلصون لأماناتهم العارفون بمهنتهم القادرون على حسن أدائها ؟

ولا يتسع الموقف إلى الافاضة في الحديث وحسبنا الاشارة إلى مسألة واحدة : أن المعاهد الشرعية في البلاد الاسلامية أضعف بدرجات من المعاهد الأخرى العلمية من حيث الإنفاق عليها والعناية بها .

انها لحقيقة ملموسة وتؤدي الى نتيجة واحدة لها مغزاها : ضعف المعاهد الشرعية في انتاجها وفي مستواها وهي معامل الدعوة إلى الله .

إن مدارسنا لا تعلم الأبناء معرفة الحق وطلبه ، ولا تعلمهم الجرأة على الجهر به . ولذلك ما زال الغموض يكتنف عقول أبنائنا وما زالت السطحية في التفكير طابعنا .

٢ ـ الناحية الوجدانية :

كل هذا الذي سبق قد تم في الناحية الفكرية ، ولننتقل الآن الى الناحية الثانية والى مظهر آخر من مظاهر هذا الانسان هو الناحية الوجدانية ، وهنا نجد البيت والمدرسة أيضاً يتعاونان تعاوناً وثيقاً على إفساد مثالية الاسلام • لقد كان الشيء الهام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كلمة التوحيد ، وتبع هذه العقيدة تغيير في مقاييس الجاهلية واستئصال لمفاهيمها •

كان الفرد في الجاهلية يعيش لذاته وشهواته وتكاثره وتفاخره ، ولقد كان في العرض الذي عرضه عتبة بن ربيعة على محمد صلى الله عليه وسلم رغبة في المصالحة وايقاف الخلاف بين قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم • كان ذلك العرض عرضاً صادقاً لما يرجوه العربي الجاهل ، المال ، الجاه ، السؤدد•• ولم يكن محمد عليه الصلاة والسلام في المنزلة التي وضعه عتبة فيها ولم يكن أي جواب ليفي بالغرض ، ولكن آيات الله[1] نطقت على لسان محمد عليه الصلاة والسلام فأجابت عن حقيقة محمد وأفصحت عن مكانته ورجع عتبة بغير الوجه الذي جاء به •

وانتزع محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه من حمأة الجاهلية وأنشأ مجتمعاً لا يعيش الفرد فيه لنفسه بل لربه ثم لإخوانه •

---

(١) صدر سورة فصلت .

أما التربية التي تتلقاها اليوم فهي تهيب بالفرد أن يحرص على منفعته ، يلقن الطفل منذ حداثته بأنه سيدخل المدرسة وسيجد للحصول على الشهادة وسيكون طبيباً أو مهندساً ؛ كل هذا لينعم بالعيش ولتفتح أمامه سبل الحياة • ويشهد الطفل ما تعانيه الأم لأن ولداً من أولادها لم يفلح ولم ينجح في الحصول على الشهادة الثانوية مثلاً ، ولا يسمع الطفل في مجتمعنا هذا كلمة حزن على هذه الأمة ، ولا يضرب للطفل أي مثل من أمثلة الجهاد ليقتدي به •

وهكذا ينشأ الطفل وقد ملأ سمعه وبصره وخالط كل ذرة من ذرات قلبه ونفسه الحصول على الشهادة في سبيل العيش ، واتخذ العلم وسيلة لذلك وانحطت درجة العلم وامتهنت كرامته وليست المدرسة أحسن حالاً من المنزل فالطالب يخوف ويحذر من عدم النجاح ، وجهود المدرسة كلها منصبة على الشهادة مبذولة في سبيلها •

ولقد انتقدت التربية الحديثة هذه الطريقة وانتقد الامتحان وجاء في نقدها : (أنه يجب أن يحذف الامتحان من المدارس لأن في جعل الامتحان غاية للدراسة اساءة خلقية كبرى في تربية الطالب إذ يجب أن يتعلم الطفل حباً في العلم ورغبة فيه لاللامتحان وفي سبيل الحصول على الشهادة) • ولم يكن لدى أسلافنا مثل هذه الشهادات المزيفة ولم يكن لديهم مثل هذه الامتحانات ولكنها كانت أمانة •

وتربيتنا في المنزل وفي المدرسة تربية تؤدي إلى الأثرة وحب الذات وإلى أن يجعل الغرض من الحياة منزلاً فخماً وأثاثاً وريشاً . الأم تضع هذه المعاني في ذهن الطفل ولا تحسن أبداً أن تقول له : يابني إني لأرجو الله أن يقر عيني بجهادك في سبيل الله ونضالك في سبيل الحق واستشهادك في سبيل اعلاء كلمة الله ، ان هذه الكلمات أصبحت مرعبة مفزعة تستعيذ الأم من أن تسمع ابناً لها ينطق بمثلها .

ولا تحسن المدرسة تربية روح التعاون بين الأبناء ، بل هي تربية للحصول على الشهادة ولا يجد الطالب فيها أي حاجة للاستعانة بزميله ، وأين هذا من نظام تربوي يوضع فيه الطالب في حلقة يقدم كل فرد من أفرادها جزءاً من البحث ويشعر كل فرد فيها بأنه لبنة في البناء يستمد منه ويمده ، هذا الذي أراده الاسلام وهذه التربية التي تربي ملكة التعاون ، أما تربيتنا فهي تنمي الفردية وتشعر كل فرد بأنه يستطيع أن يعيش وحده ويمضي في أموره وحده .

ولقد نشأ من هذا فقدان روح الجماعة وتعذر قيام جماعة بمشروع ما لأن التعاون مع الجماعة اعتياد . ولقد تعودنا أن نعمل فرادى ، ونشأ عن ذلك أيضاً عدم ثقة الأفراد بعضهم ببعض ، والمؤسف أن الروح التي تسود المجتمعات الاسلامية هي روح النقد الممزوج بالسخرية وعدم الثقة والشدة في التجريح ،

كأنما يريد الفرد أن ينتقم من عدو له يعامله معاملة أشد ما تكون غلظة وفظاظة معتمداً بأن خصمه سيء الخلق يستحق هذا النوع من المعاملة . والحق أنا ربينا على ألاّ يحترم الواحد منا أخاه .

أنصدق الحديث ؟ ألا تتسامح في الكذب ؟ ألسنا نَعِد ولا نفي ؟ أنعدل في الخصومات التي تقع بيننا ؟ أندرك مالنا وما علينا ادراكاً صحيحاً وننصف من أنفسنا ؟ ألست ترى القذى في عين أخيك ولا ترى الجذع في عينك ؟ ...

والصلة بالله تعالى تتصل بالمظهر الوجداني . والمؤسف أن المسلمين انحرفوا بالصلاة عن معناها الأصلي ، ونلاحظ بوضوح أن الصلاة ليست لها مكانتها في النفوس ولا تؤدي إلى ثمراتها ولا تقدر قدرها . كان عليه الصلاة والسلام يصلي من الليل حتى تورمت قدماه ومعنى ذلك الحرص الشديد على موضوع الصلاة. وقد فقد هذا المعنى ، وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . وهذا المعنى قد فقد لدى المسلمين أيضاً وذلك لأن السطحية التي تناولت كل شيء جدي في حياة المسلمين تناولت الصلاة أيضاً . وأصبح مفهوم الصلاة يقتصر على قشرة لا تغني أي غناء ، هذا ما نشاهده في أنفسنا وفي اخواننا ، وهذه النظرة السطحية تفقدنا ميزات الصلاة.ان الغرض من الصلاة تكوين الرجولة وانماء روح البطولة فأولئك الذين يخشون الله ويؤمنون به ويلجؤون اليه ويدركون شيئاً يسيراً من عظمته جل شأنه لا تتعاظمهم الأمور ولا

يشعرون بالخوف من الرجال ولكنهم يجدون كل شيء حقيراً إلى جانب عظمة الله فلا يبالون بشيء حين يصدعون بالحق ويقفون في وجه الباطل .

وإن المقياس الحقيقي للعبادة ، هو استقامة السلوك والجهاد في سبيل الحق وعدم الخوف من اعلان كلمة الله والتعاظم على أعداء الله والحط من كبريائهم وتحطيم باطلهم وقرع أسماعهم بقوارع الحق اقتداء بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعلماء المجاهدين كابن تيمية والعز بن عبد السلام .

أما الطابع الذي طبع عليه سلوكنا في الناحية الوجدانية فهو تربية الأثرة ونمو الفردية وضمور روح التضحية والتعاون والروح الاجتماعية،ويتبع ذلك روح نقد لاذعة لاخواننا وانتقاص لهم ورؤية نقائصهم واضحة جلية ..

٣ ـ الناحية السلوكية :

أما في الناحية السلوكية فالمظهر الواضح ، هو التردد والحذر وعدم الاقدام وفقدان روح الجرأة وانعدام روح المغامرة في سبيل الحق • ولقد كانت أعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم تتسم بسمة المغامرة في أقصى حدودها إلى جانب الإحكام في أقصى حدوده أيضاً وحادثة الهجرة هي مثل من أمثلة لا تحصى •

يحتاج العنصر الإرادي إلى غذاء ودربة وممارسة للعمل ، وكل ما لدى الانسان في حياته عادات نفسية تتحكم فيه ، وأثمن ما يملك الانسان عادات كريمة طيبة ، وهذه العادات تتناول سلوك الانسان في جميع نواحيه •

والذي اعتاد أن يشعر في مضمار العمل بالخوف والتهيب وألِفَ أن يجد نفسه كأنه مكبل في كل أمر ، والذي يصعب عليه جداً الاقدام على أمر عظيم ذاك انسان قد تعود أسوأ العادات وقيد بأردأ القيود التي تحول بينه وبين الاستفادة مما وهبه الله من قوى وطاقات •

لقد تعودنا التردد وعدم الاقدام ، لكننا تعودنا إلى جانب ذلك الاعتذار وتسويغ موقفنا الفاشل الضعيف وذلك من مضاعفات عدم الاقدام وسيئاته المزدوجة إذ نبذل من الجهد لتسويغ موقفنا ما لو بذل في سبيل العمل لكان منتجاً لشيء ما ، ونحن نعتذر لاخواننا ونبرىء أنفسنا من النقص كما نعتذر لأنفسنا ، نعتذر

بالمرض ونعتذر بضيق الوقت ونعتذر بقلة العلم ونعتذر بتعقد المشكلة وعظمها ، ونعتذر بعد كل هذا بالخوف من الاخفاق ، والخوف من الاخفاق عامل قوي جداً في تثبيط غزائمنا ، وليس الخوف من الإخفاق مذموماً في كل حين ، بل قد يكون ممدوحاً إذا دفع إلى إحكام الأمر وإعداد العدة ، كان محمد صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر يكثر اللجوء إلى الله والتضرع إليه حتى أشفق أبو بكر عليه وقال : « بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك وعده » ، هذا الخوف في هذا الموطن ممدوح جداً يحمل على استفراغ الجهد واستنفار الطاقات واعداد أكمل العدد • أما الخوف الذي لدينا فهو نوع من الوهم لا حقيقة له يقوم في أذهاننا الحائرة المبلبلة ويحول بيننا وبين الاقدام ، وهو خوف مبعثه رضا الناس وسخطهم وليس مبعثه الخوف على المبدأ والعقيدة • وشبيه بهذا الخوف دعوى نقص العلم ، وهي دعوى صحيحة إذا لم تجاوز حد الاعتدال •

إن العامل الأساسي في نجاح الداعية : ليس كثرة علمه ولا قوة بيانه وسحره ، ولكن هنالك عاملاً قبل كل هذه الأمور : هو الايمان بالدعوة التي يدعو إليها ، والخوف الشديد مما يعتريها، والشعور بالأخطار التي تقع بسبب اهمال الدعوة ، إن مثل هذا الانسان يصيح بالناس ويترك فيهم أقوى الآثار ولو كان أبكم •

فالخوف الذي نشكوه هو خوف سلبي مانع من الاقدام ، وليس دافعاً ، ولذا صح أن يكون وهماً من الأوهام العامل فيه ، فقدان روح الاقدام ومراقبة الناس والبحث عما يرضيهم قال تعالى:

« أتخشونهمْ فاللهُ أحقُّ أنْ تخشوهُ »(١) .

الخوف من الاخفاق المقرون بالتردد والخور ، وضعف العزيمة وعدم الاقدام خوف مرده إلى سوء التربية ، وهو مقترن بشيطان يدعو إلى البعد عن الواجب ، واعتذار باطل وحجة واهية كحجة المنافقين الذين قال تعالى فيهم :

« ولو أرادوا الخروجَ لأعدوا لهُ عدةً ولكنْ كرهَ اللهُ انبعاثهمْ فثبطهمْ وقيلَ اقعدوا معَ القاعدينَ »(٢) .

يجب أن نعد العدّة ونقذف بأنفسنا في ميدان العمل متوكلين على الله غير مبالين بشيء قال تعالى :

« فإذا عزمتَ فتوكلْ على اللهِ »(٣) .

فإذا كان الاستعداد ناقصاً لدينا فيجب بذل الجهد لاستكماله؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . أما القعود لعدم استكمال العدة فهو حالة مرضية وحيلة شيطانية .

يجب أن نشعر بالحاجة إلى تغيير الواقع ونشعر بعدم الرضا بالواقع وهنا يجب أن نلاحظ أيضاً بألا ننتهي إلى اليأس فنقعد عن العمل أو ننتهي إلى الغرور فنقدم دون أهبة ، يجب ألا نسلم أنفسنا إلى اليأس ولا نركن إلى الأمن . اليأس كفر والغرور ضلال ، وليس يسيراً أن يسير المرء في الطريق الوسط وأن يكون غير يائس ولا مغتر .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

والاغترار يقعد بنا عن دراسة الموقف وتقصي صعوباته ، واليأس يقعد بنا عن العمل لأننا نظن أن العمل مستحيل .

من الصعوبة بمكان أن نظل في حد الاعتدال على صراط لا إفراط فيه ولا تفريط،فندرس الصعوبات دراسة كاملة كما يجب أن تدرس ونحمل في الوقت نفسه أكبر قوة معنوية تحدو بنا إلى العمل ، إن الصراط المستقيم هو الحد الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط . والواقع أن الفرد يغتر فلا يدرس الموقف ، أو يدرس الموقف فتضعف عزيمته من هول ما ينكشف له ، ولكن الايمان والتربية الاسلامية يبلغان بنا ما نريد بيسر وسهولة .

ويتصل بالعنصر الفكري العملي،طابع نجده في كل مجتمعاتنا، ذلك هو طابع بعثرة الجهود ، نجد ذلك واضحاً في تصرفات أفرادنا وجماعاتنا.إن ثروات الأمة هي الثروات المادية والثروات المعنوية. **والثروات المعنوية هي اغلى وأثمن من الثروات المادية ، إنها ثروة الرجال وثروة الأفكار ،** فاذا لم تحسن الأمة الاستفادة من اختصاصات رجالها فلم تضع كل رجل في مكانه أفسدت مرتين ، أفسدت باضاعة الكسب من اختصاص المتخصص وأفسدت في وضعه في غير مكانه فكانت الخسارة مضاعفة . وكل هذا بعثرة للجهود دونها بعثرة الأموال . ومن بعثرة الجهود أن تصرف طاقات كبيرة في أمر لا جدوى فيه وفي أمور جانبية فرعية ثم تأتي الساعة فلا تجد جهداً وينكشف الحال عن ضياع التنظيم وعن روح الفوضى الشائعة . إن الاندفاع بعامل الفوضى أيسر من العمل مع ضبط الأمور وإحكامها وأقل عناء .

— ٢ —

سبيل الخلاص

تكوين عدد كاف من الدعاة وبثهم بين المسلمين في أنحاء البلاد شريطة أن تجتمع لدى هؤلاء الدعاة الشروط الضرورية ، وأن يتسلحوا بالسلاح الكامل لاداء الدعوة . هذا هو الأساس والمنطلق .

وتكوين هؤلاء الدعاة أمر عزيز ليس بالسهل ولا بد فيه من شروط جمة نذكر منها ما يلي :

١ ـ لا بد من كسر الأطواق وتحطيم الأغلال :

ونعني بالأغلال تلك الأغلال التي صنعتها جاهلية العصور المتأخرة في البلاد الاسلامية تلك الأغلال التي عاش فيها المسلمون ردحاً من الزمن مستسلمين إلى الضعف والخور والتردد والحذر ، مستسلمين إلى الأعراف التي تحيط بهم في الملبس والمسكن والحياة والتفكير والسلوك .

لا بد من الخروج من آثار هذه البيئة الجاهلية التي بلغت أعماق نفوسنا ، ولقد بعث الله الرسل ليحرروا الناس من الأغلال الفكرية

والنفسية والخلقية ، الأغلال التي وضعتها بيئاتهم ومجتمعاتهم قال تعالى :

« ويضعُ عنهمْ إصرهمْ والأغلالَ التي كانتْ عليهمْ » (١) .

ولكسر هذه الأطواق لا بد من أمور :

أولها : الشعور بالأطواق شعوراً واضحاً جلياً ، وانها لتحيط بأعناقنا ولكن أكثر الناس لا يشعرون بأي غل يحيط بهم .

ثانيها : ادراك مدى أخطارها .

ثالثها : العزيمة المصممة التي تدفع الى كسر القيود والخروج منها ، ومن حالة الإخلاد الى الأرض ، قال تعالى :

« يا أيها الذينَ آمنوا مالكمْ إذا قيلَ لكمُ انفروا في سبيلِ اللهِ إثاقلتمْ إلى الأرضِ ارضيتمْ بالحياةِ الدنيا منَ الآخرةِ فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخرةِ إلاّ قليلٌ »(٢). وقال تعالى: **« واتلُ عليهمْ نبأَ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعهُ الشيطانُ فكانَ منَ الغاوينَ ولوْ شئنا لرفعناهُ بها ولكنْ اخلدَ إلى الأرضِ واتبعَ هواهُ ، فمثلهُ كمثلِ الكلبِ إنْ تحملْ عليهَ يلهثْ أو تتركهُ يلهثْ »** (٣) .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

رابعها : مشاهدة نقص البيئة وأثر هذه البيئة فينا وفيمن حولنا ، وليس بالأمر اليسير الا على من يسره الله له ومن فتح الله عقله ، وأكبر من ذلك شأناً القدرة على انتزاع النفس من البيئة السلبية والانطلاق في أجواء الخير والايمان •

ولقد كان أعظم ما أتى به المصلحون انتزاعهم أنفسهم من بيئتهم وانتزاعهم اخوانهم ثم تقديم أمثلة جديدة وتكوين مجتمع جديد • ولقد نعى الاسلام على المشركين خضوعهم لآثار بيئتهم وعدم قدرتهم انتزاع أنفسهم من ربقتها قال تعالى : حاكيا حال المشركين في جمودهم ناعياً عليهم عدم قدرتهم على الانفلات من أغلال بيئتهم :

« إنا وجدنا آباءَنا على أمةٍ وإنا على آثارهمْ مهتدونَ »(١) •

وكان زعماء مكة يحتجون بأن محمداً يريد أن يصرفهم عن إلفهم وعاداتهم وكان ذلك أمراً عظيماً لديهم • قال تباركت أسماؤه على لسانهم :

« أجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عُجاب » (٢) •

وكان أبو لهب يتبع محمداً عليه الصلاة والسلام ويقول للناس : إن هذا يريد أن يلفتكم عن عبادة اللات والعزى •

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٢ •

(٢) سورة (ص) الآية ٥ •

ليس خروج الانسان عن مألوفه بالأمر اليسير ، ولعل خروج الروح من الجسد أهون من خروج الفرد عما ألف • لعل هذا ما كان يعنيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه فقال :

« اللهمَّ اهدِ قومي فإنهمْ لا يعلمونَ » •

فلقد كان عليه الصلاة والسلام يرى صعوبة خروجهم عما ألفوا فكان يدعو الله أن يعينه على إنقاذهم •

٢ ـ لا بد أيضاً من مثلٍ واقعية ونماذج قوية :

لا يتم كسر القيود الا برؤية مثل ورؤية نماذج من البشر تقدم للناس أمثلة رائعة •

يرهب الانسان القوة ويحترم البطولة وتأخذ المعاني الرائعة بجماع قلبه وتسري إلى فؤاده فتوقظ مشاعره وتتفتح أمامه معاني الحق ، ويسهل عليه اتباعه ، وأعلى درجات القوة قوة الحق والدعوة اليه والصبر في سبيله •

ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان أصحاب رسول الله القريبين منه ، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم من الناس ولولا الفتح لما دخل الناس في دين الله أفواجا ، وليس شيئاً من هذا ماديا ولكن القوة المادية تخضع في النهاية لقوة الحق •

لقد تمّ الاصلاح الذي تم ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام، وغيَّر صفحة التاريخ . لقد تمّ بمحمد عليه الصلاة والسلام وأصحاب محمد ، وكانوا العنصر العملي التنفيذي ، وكان العنصر الأول الوحي الذي كان يتلقاه محمد عليه الصلاة والسلام من خالق الأرض والسماء ويبلغه أصحابه . كان الوحي داعياً إلى كسر أغلال الجاهلية ، وكان الوسيلة القوية إلى ذلك محمد وأصحابه نماذج الحق والقوة التي حطمت الأغلال وأهابت بالناس أن يخرجوا أنفسهم من القيود الجائرة .

وليس لنا من سبيل إلا هذه السبيل ، طليعة تتأسى خطوات محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه شبرا بشبر وذراعا بذراع في كل ظاهرة وخفية وفي كل دقيقة وجليلة ، في العبادة والتفكير والحرب والتدبير والسياسة والدعوة والجرأة والحكمة :

« وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوهُ ، ولا تتبعوا السبلَ فتفرقَ بكمْ عنْ سبيلهِ »(١) .

ولا يصلحُ آخرُ هذه الأمة الا بما صلح عليه أولها كما قال الإمام مالك رحمه الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

٣ ـ رجل العقيدة :

وأهم شيء في الموضوع تكوين رجل العقيدة ، ذلك الانسان الذي تصبح الفكرة همه : تقيمه وتقعده ويحلم بها في منامه وينطلق في سبيلها في يقظته ، وليس لدنيا بكل أسف من هذا النوع القوي والعبقري ولكن لدنيا نفوساً متألمة متحمسة مستعدة بعض الاستعداد ، ولا بد للنجاح من أن ينقلب هؤلاء إلى مثلٍ قوية تعي أمرها ، وتكمل نقصها ليتم تحفزها الذي ينطلق من عدم الرضا بالواقع والشعور بالأخطار التي تتعاقب ، وينتهي باستجابة لأمر الله ونداءات الكتاب الحكيم ومراقبة وعد الله ووعيده ، والتأسي بسيرة الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه .

وليس ما ذكر من نوع الفكرة التي يحلم بها الفرد في ساعات الراحة وتذهب فيها أحلامه كل مذهب تلك هي أحلام اليقظة التي يعتبرها علماء النفس متنفساً للرغبات الدفينة ونوعا من التعويض عن تحقيق ما يرغب الفرد فيه ، فاذا سيطرت هذه الأحلام على الفرد وشغلت أكثر وقته كان ذلك انحرافا عن الحال السوية ، وتعوّد هذا الانسان أن يلجأ الى أحلامه كلما استعصت الأمور ، ولعل أكثر مشروعات شبابنا من هذا النوع من الأحلام .

أن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يعمد الى اصلاح اقتصادي أو اخلاقي أو صحي أو سياسي أو اداري أو علمي ،

ولكنه عمد إلى اصلاح الايمان ، ودعا بدعوة التوحيد فكان من بعد ذلك كل اصلاح وكل قوة وكل خير ، ولا يصلح أمر آخر هذه الأمة الا بما صلح عليه أولها • فرجل العقيدة السبيل الوحيد لعلاج أنواع الانحرافات التي سبق ذكرها جميعها ، ذلك أن رجل العقيدة سهم يندفع في تحقيق أهدافه ، وهو انسان ملأت نفسه عقيدته ، فهو يعيش من أجلها ويرضى بكل أذى في سبيلها ويبذل جهده وكل غال ورخيص ، ورجل العقيدة أعظم ذخر نقدمه للعقيدة وأكبر رصيد نعده في سبيل نصرتها •

رجل العقيدة إن لم تكن لديه الوسائل الكاملة سعى في إيجادها ولو كان أمرها مستحيلا ، فالوسيلة الفعالة القوية هي تكوين أمثال هؤلاء الرجال ، والاصلاح الذي نرقبه لا يتم الا في ايجاد أمثال هؤلاء •

صفات رجل العقيدة :

ولا بد لنا من وصف عاجل وتحديد مجمل لرجل العقيدة •

ان السلوك الأول الفطري الذي يأتي بـه المخلوق إلى هذه الدنيـا ، هو السلوك الغريزي ، وهذا السلوك يظل لدى الانسان فعالاً مؤثراً حياة المرء كلها .

يولد الطفل وبعد ساعات قليلة يسترجع وعيه ويأخذ بالبحث عن ثدي أمه مصدر طعامه وشرابه وتظل هذه الغريزة فعالة قوية

لديه حياته كلها وبعد زمن يسير تبدو لدى الطفل غريزة الخوف ثم غريزة الغضب ثم غريزة الظهور والاستعلاء وما الى ذلك •

ويسلك الطفل في سنيه الأولى مستجيبا لغرائزه وحدها ، فاذا نما قليلا لم يعد يقبل منه ذلك السلوك الغريزي الذي كان يقبل أولا ، بل يؤخذ الطفل بالتربية والتهذيب فيعلم بأنه لا يحسن به أن يمد يده الى الطعام كلما اشتهاه وانه ليس له أن يمد يده الى كل ما يجتذب نظره فاذا أطاع أثيب واذا عصا عوقب وهكذا ينتقل الطفل فيجد نفسه أمام عامل آخر يدفعه الى الفعل أو الترك ، هذا **العامل الثاني هو الثواب والعقاب** وهكذا تعدل الغرائز وتقوم بالثواب والعقاب ثم يزداد نموه فيجد عاملا جديدا غير عامل الثواب والعقاب وهو **عامل الرضا والسخط** ، رضا الناس الذين حوله وسخطهم ورضا المجتمع الذي يعيش فيه وسخطه ، ولهذا الدافع الجديد سلطان لا يقل عن سلطان الدافع الغريزي إن لم يكن أقوى منه ، فنجد المجتمع يتحكم في سلوكنا وعاداتنا وأعمالنا وملبسنا ومطعمنا ومشربنا فيفرض علينا أمورا ويحرم علينا أخرى سواء رضينا أم سخطنا ، وكثير من الناس يحكمهم المجتمع طيلة عمرهم وليس ما يسمى خوف العيب والعار الا خوفا من المجتمع •

وفي مجتمع كمجتمعنا لا يليق بشخص محترم أن يحمل حاجاته الى منزله مع أن ذلك مما يثاب المرء عليه وفي مجتمع

كمجتمعنا لا بد من التبذير ولا بد من الترف ، فالأرائك في المنزل لا يحسن أن تكون من خشب رخيص وفراش بسيط بل لا بد من المغالاة بأثمانها وذلك محرم في عرف الشارع لأنه تبذير للأموال ووضعها في غير موضعها ، ولكن سخط المجتمع أكبر عند الناس من الحلال والحرام وقد قال عليه الصلاة والسلام .

« ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » .

ويتحكم المجتمع في الأزياء تحكما يقارب عبادة الوثن .

كثيرون أولئك الذين يعيشون من أجل رضا الناس وخوفا من سخطهم لا يستطيعون التفلت من هذه القيود حياتهم كلها وهذا المستوى يرتبط بالمستوى الغريزي الأول ذلك أن الانسان اجتماعي بفطرته يعيش مع الناس ويحرص على رضاهم .

وقليل أولئك الذين يستطيعون أن يتجاوزوا هذا المستوى يتخطوه الى مستوى أعلى هو **مستوى العقيدة** فيعيشون لعقيدة ويمضون في سلوكهم بما تملي به عليهم عقيدتهم سواء سخط الناس أم رضوا ، وليس فوق هذا المستوى حين يندفع المرء بوحي عقيدته وايمانه غير مبال برضا راض أو سخط ساخط ، ليس فوق هذا المستوى مستوى أرفع منه .

ذكرنا بأن غرائز المرء لا بد من تعديلها ولا يستطيع أفراد المجتمع أن يعيشوا عيشة راضية اذا كان الذي يحكم الأفراد هو

غرائزهم ، وتعديل الغرائز في التربية التقليدية يتم على الغالب عن طريق الثواب والعقاب ، وبذلك يدع المرء دافعه الغريزي ويكبته طمعا في ثواب أو خوفا من عقاب أو رغبة في ثناء أو رهبة من هجاء ولكن الغريزة في كل هذه الأحوال شديدة قوية فعالة مالكة الا أنه قد حيل بينها وبين ما تشتهي لوجود العقاب أو تعيير المجتمع وسخطه وعقابه ، وقد يقع المرء في مثل هذه الحال فريسة لصراع الغريزة وغريزة الخوف من المجتمع وقد ينوء هذا الانسان الموزع بحمل العبء فتخور قواه وتنهار أعصابه .

إن خير وسيلة لتربية الغرائز وتعديلها تربية العقيدة تربية قوية . هنالك تظل الغريزة ولكنها تصبح مملوكة غير مالكة ، تابعة غير متبوعة خادمة غير مخدومة ، هنالك في ظل العقيدة المثلى يلين قياد الغرائز جميعها وتصبح كلها جنودا طيعة للقيادة العليا ، فغريزة الجمع لا تفقد قوتها ولا حدتها ولكن وجهتها بعد هيمنة العقيدة ليست الى الترف والتفاخر والتكاثر بل الى خدمة العقيدة ؛ فالمال يجمع لينفق دفعة واحدة في سبيل العقيدة . وكذلك الأبناء يحبون ماداموا عونا على خدمة العقيدة ونصرتها ، وكذا الاخوان وكذا الأهل والعشيرة . والغضب لا تزول شرته ولكن تتغير أسبابه ودوافعه أما دافعه الفطري فهو دفع اعتداء على مال أو جاه أو شيء يخص ذاتية الفرد فاذا هيمنت العقيدة وكان الاعتداء على واحد مما ذكر لم يبال الفرد ولم

يغضب • نثر التراب على رأس محمد عليه الصلاة والسلام وكان ذلك من قبل سفيه من سفهاء قريش ، فعاد عليه الصلاة والسلام الى منزله ولم تظلم الدنيا في عينيه ولم تكبر الفعلة الشنيعة في نظره لأن كبرياء النفس قد زال في سبيل العقيدة واستبدل بـه عظمة الصبر والحلم في سبيل العقيدة ، رجع الرسول الى منزله بهدوء ووقار وأسرعت ابنته اليه تبكي وتغسل رأس أبيها ، فيقول الرسول الكريم :

« لا تبك يابنية فان الله مانع اباك » •

والخوف يزول لدى صاحب العقيدة ولكن أسبابه ودوافعه الأولى لا تزول ، لقد كان يخشى الظالم ويرهب الجائر فلمـا وجدت العقيدة لم يخش الظلم ولا الجور ولكن خشي السكوت عن الحق وخشي الجبن عن الصدع بالحق ، وهكذا يخشى الوعيد الذي جاء في الآية الكريمة :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونهـا أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »(١) •

إن حفنة يسيرة من رجال العقيدة يستطيعون أن يغيروا معالم التاريخ •

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٤ •

البيئة التي هي مظنة وجود رجل العقيدة :

أين تجد رجل العقيدة ؟ وما المجال الذي هو مظنة رجل العقيدة ؟ المجـــال الذي يجب أن نفكر فيه هو مجال المثقفين المؤمنين ، هؤلاء وحدهم محط الأمل ومعقد الرجاء في تحقيق معاني الطليعة •

ان شروط الطليعة أقرب أن تتحقق في هؤلاء الذين جمعوا بين ثقافة العصر الحديث والإيمان بالدين الاسلامي ، وإن كان ينقصهم زيادة معرفة بالدين وزيادة معرفة بالعلوم الحديثة فان عليهم أن يزدادوا علما بالموضوعين معا ••

هؤلاء هم أقدر الناس على دراسة الموقف ومعرفة النواقص التي تسربت الى النفوس من آثار البيئة أو الاستعمار والصليبية وهم أقدر على تخليص أنفسهم من هذه الآثار السيئة والانطلاق في سبيل الدعوة •

وهم أجدر بأن يقدموا للأمـــة المثل الصحيحة متحققة في سلوكهم ، وهم أجـــدر أيضاً بأن يكونوا في الطليعة ويجتذبوا الناس الى المثل الصحيحة •

ومن العوامل التي تساعد على تكوين رجال العقيدة : **الشعور بالخطر** الذي ينتاب الأمة الاسلامية في كل قطر من أقطارها وفي كل بلد من بلادها ويلي ذلك الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى •

من يشعر بالخطر ..؟

لا يستطيع الشعور بالخطر كل انسان ، ذلك أن دهماء الناس لا يستطيعون أن ينفذوا ببصائرهم الى ما بعد الحاضر القريب الذي يحيط بهم مثل هؤلاء تلهيهم مشاغلهم القائمة عن النظر في أي أمر ولا تستطيع أبصارهم أن تتجاوز أنوفهم ، هؤلاء أنفسهم اذا دقت ساعة الخطر فجئوا بما لم يكن في حسبانهم فهلعت نفوسهم وانخلعت أفئدتهم من شدة الهول وهؤلاء هم الذين أتى القرآن الكريم على ذكرهم في قوله تعالى :

((حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها)) (١) . وقوله تعالى : : **((فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون))**(٢) وقد صرحت الآيات الكريمة بأن أخذهم بغتة كان السبب فيه أنفسهم لأنهم غفلوا وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون . هؤلاء الذين يصدق عليهم قوله تعالى :

((ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين)) (٣) فالمصلون لا يؤخذون بغتة ولا يهلعون ولا يجزعون لأنهم يرقبون أمر الله .

---

(١) سورة الأنعام ــ ٣١ .

(٢) سورة الأعراف ــ ٩٥ .

(٣) سورة المعارج ــ ١٩ .

مات ولد لعمر بن عبد العزيز فلم يجزع عليه فقيل : (إنك لم تجزع) فقال ما معناه (كنت أقدر أنه قد يموت في كل حين فلما وقع الموت لم أجزع) •

يظن الناس أن النعمة لن تفارقهم وأنهم خالدون في مساكنهم وما أترفوا فيه وقد قال تعالى :

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن اهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا » (١) •

وقليل وألئك الذين يستطيعون أن يخلصوا من مشاغل الساعة لينظروا الى مكانهم الذي هم فيه والكثيرون لا يستطيعون ذلك لأن صفتهم صفة الطفولة اللاهية التي لا تعرف الاعتبار ولا تستطيع النظر فيما سبق وأكبر مــن ذلك أن تستطيع أن تنفذ ببصرها الى بعيد أو أن ترى الأشياء قبل وقوعها •

ومن المؤسف جداً أن تفقد الأمة الأفراد الذين ينظرون الى بعيد ويضعون الأمور موضعها ولذلك نجد أنفسنا تفجأ في كل حين بالأمر الداهم ولم نعد له عدته •

الشعور بالخطر يرتبط بادراك وطأة الماضي والاحاطة بالموقف الحاضر والنظر الى المستقبل وكل ذلك لا يطيقه الا نافذ البصيرة •

---

(١) سورة يونس ــ ٢٤ •

ويتفاوت الشعور بالخطر بتفاوت الأشخاص فمنهم من لا يشعر بالخطر أي شعور ومنهم من يطغى عليه هذا الشعور حتى يصبح حالة مرضية يؤدي بصاحبه الى اليأس ويشل حركته ويحول بينه وبين العمل • وهنالك شعور بالخطر مقترن بالأمل مشفوع بأمضى أنواع العزيمة وأنفذ ألوان البصيرة ، والمثل الكامل لذلك محمد عليه الصلاة والسلام الذي جاء في الصحيح عنه أنه كان يقول :

« انا النذير العريان ، النجاء النجاء » •

وهنالك من لا يشعر بالخطر الشعور الذي يوازي الخطر بل يشعر شعوراً أقل من الشعور الواجب وهذه هي حالة شبابنا الواعين •

والاندفاع في سبيل الانقاذ يوازي الشعور بالخطر أو هو أقل منه وذلك اذا كان الفرد واعياً معتدلا غير مغلوب على أمره • يقول مالك بن نبي في كتابه (تأملات في المجتمع العربي) :

« يمكن أن نعتبر الصعوبات من ناحية أوضح دليل على النهضة واليقظة ••• ونقول مع توينبي : (ان الصعوبات هي تحد خلاق لأنه يستحث الرد عليه) • ولا شك أن الرد لا يمكن أن يكون بغير الكد والتفكير » •

فمن العوامل الدافعة لتكوين رجل العقيدة الشعور بالخطر لدى شباب الأمة الاسلامية في كل قطر من أقطارها ويلي ذلك

الشعور بالخطر الذي يداهم العالم كله ويهدده بالدمار بين آونة وأخرى والخلاص من الخطرين سبيله واحدة هي حمل المسلم رسالته الى اخوانه المسلمين والى العالم كله •

ولا بد لرجل العقيدة من أن يشعر أنه ولد ولادة جديدة وأن هنالك انقطاعا بين حياته الماضية وحياته الحاضرة • لقد آمن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانقطعت صلتهم بماضيهم وبمجتمعهم الجاهلي ، ولدوا ولادة جديدة ووصلوا حبالهم بحبال مجتمع جديد •

هذا الشعور خير معوان على كسر الأطواق والتخلص منها الى غير رجعة وهو خير معوان على الاندفاع في سبيل العقيدة •

العوامل التي تساعد على تكوين رجل العقيدة

- الشعور بالخطر الخارجي
  - الصهيونيــة
  - الصليبيــة
  - مخططات الاستعمار

- الشعور بالخطر الداخلي في المجتمع
  - دراسةالتاريخ تكشف عن عوامل الانحراف
  - دراسة الحركات الاصلاحية والعقبات التي قامت في وجهها
  - كشف مخططات الأعداء في الداخل
  - الغزو الفكري الغربي

- العامل الداخلي المتعلق بالأفراد
  - السطحية بما يتبعها
  - الفردية والأثرة وضعف روح التعاون
  - روح التردد والحذر والجبن وعدم الاقدام
  - فقدان روح المغامرة والدافع للعمل

- دواعي الخير والاستجابة لنداء الواجب
  - التربية الفكرية ـ التأسى برسول الله وأصحابه (السيرة)
  - التربية الواجدانية
    - الاصاخة لنداءات القرآن الكريم
    - العبادة خير وسيلة للتربية
    - الجماعة فرض
    - الدعوة تزيد الايمان
  - التربية العملية ـ الولادة الجديدة

وللتبصر بسبيل الخلاص لا بد من تحليل العوامل الداخلية والخارجية ، ونعني بالعوامل الخارجية المخططات التي يرسمها أعداء هذه الأمة منذ دهور طويلة وما يزالون يمكرون ويكيدون ويرقبون نتائج أعمالهم السيئة بدقة وحذر •

هذه الأخطار الخارجية ليست قليلة الأهمية وليس من اليسير على المسلمين اليوم تتبعها واكتشافها ، ومن المؤسف أن المسلمين في هذا الشأن عالة على الغربيين ينتظرون ما يتسرب اليهم منهم من نصوص تظهر أغراض هؤلاء ونواياهم وشيئا من مخططاتهم •

ومما يجب الا يغيب عن الذهن المؤسسات العالمية التي تشترك فيها أكثر الأمم الاسلامية ، تلك المؤسسات التي تجمع احصاءات عن كل ما يتصل بالتربية لدى المسلمين بوساطة الوسائل الدقيقة التي لديها وهذه المؤسسات بتتبعاتها ونشراتها وخبرائها جديرة بالدراسة •

والمدارس التبشيرية واستقلالها في البلاد الاسلامية وصلاتها بمؤسساتها الأجنبية حتى لكأنها حكومة ضمن حكومة والقائمون عليها الذين هم من مخلفات الحملات الصليبية جديرة أيضا بأن يستيقظ لها المسلمون ويخشوا شرها •

ووسائل هؤلاء لا تعد ولا تحصى ، تمثل كلها تسلط الماكر الغادر اللئيم على انسان ساذج بسيط • ألفت وزارة الخارجية في

دولة غربية لجنة عالمية من الاختصاصيين ، وكانت مهمة هــذه اللجنة دراسة العالم العربي ، وبصورة خاصة النــزاع العربي الاسرائيلي ، وتحديــد المشاكل والصعوبــات وترتيبها تبعــا لأهميتها ، ثم البحث عن حلول ، سواء كانت ذات نوازع قانونية رشيدة أو لم تكن كذلك •

وتقول هذه الوزارة : لقد كنا في حاجة الى قائــد عربي تتجمع بين يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لأي زعيم عربي مــن قبل ••• سلطات تمكنه من اتخاذ قرار سواء رضي به الشعب أم لم يرض • والرجل الوحيد الذي يستطيع الحصول على مثل هذه السلطة هو الشخص الذي يتطلع بشوق اليها •••

ومن سبل الخلاص أيضاً:دراسة البيئة التي نعيش في أخطائها وانحرافاتها ، ولا بد أيضا من دراسة أحوال المصلحين وخطتهم في الاصلاح في الأمة ، ودراسة العقبات التي قامت في وجههم • ومن ذلك حال عامة المسلمين على مر العصور من حب للدنيــا وكراهية للموت وميل الى الترف والدعة ، وأكبر من كل هذا أهمية اختلاف وجهات المسلمين وضعف ادراكهم حقائق الأمور وانشغالهم بالقشر عن الجوهر وتربية الأثرة وتنائجها كما بينا •

وهكذا لا بد أيضا من دراسة التاريخ الاسلامي والوقوف على ما اعترى المسلمين حكامهم وعلماءهم وعامتهم خلال فترات

التاريخ من انحراف عن المعاني الصحيحة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام وتتائج هذا كله في عودتهم الى جاهليتهم •

ولا بد أيضا من دراسة الحركات الاصلاحية منـذ حقب طويلة مـن الزمن ودراسة أسباب إخفاقها وتتبع هذه الحركات واحدة بعد واحدة وبيان مدى النجاح الذي انتهت اليه أوالاخفاق الذي منيت به والدائرة المحدودة التي استطاعت العمل فيها • ولنلاحظ أن دراسة هذه الموضوعـات يحتاج الى زمـن ليس باليسيروليس معنى دراستها التوقف حتى نحصل على نتائج هذه الدراسة • ان مجالات العمل واسعة ويجب المضي فيهـا ونحن عالمون بثقل المهمة •

ومن النواحي الهامة التي يحسن أن يلاحظها الشاب المندفع في سبيل الايمان أن الفكرة لها تأثير مختلف في النفوس ، فهنالك فكرة تؤرق صاحبها وتسهده وتحمل صاحبها عـلى التفكير في الأمور وبدء النظر فيهـا واعادته ، وهذه الفكرة قد تبلغ أعماق النفس وقد تخالط شغاف القلب وتصبح هم الفرد وشغله ويقال حينئذ ان الفكرة ما زجت أجزاء النفس وتفاعلت واياها تفاعلا تاما، فهي فكرة فعالة قوية تحمل صاحبها على المضي • وهنالك فكرة خامدة لا تفعل في النفس ولا تؤثر فيها ويمكن أن يقال انهـا أضيفت الى عقل الانسان اضافة وحملت فيه حملا قال تعالى :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »(١) .

الفكرة الأولى تحدث في النفس انفعالات شتى من الخوف والقلق على ضياع الفكرة ثم الشجاعة والاقدام في سبيلها ، ولا تكون كذلك الا اذا اتصلت بحاجات النفس العميقة وأغراضها البعيدة وأهداف الانسان الحيوية الهامة وبذلك تصبح شديدة اللصوق به بل تصبح جزءا من النفس .

ومثل هذه الفكرة إما أن يكتشفها الانسان فتصبح جزءا منه وإما أن تلقى اليه فيشعر بأنه وجد فيها ضالته وأن بينه وبينها صلة عميقة ونسبا قريبا .

وهكذا تلقى الفكرة في نفس فتتلقاها تربتها مبتهجة بها أو تعارضها وتنبذها لعدم وجود التجانس معها . وهكذا كان القرشيون في مستوى لا يسمح لهم بادراك دعوة محمد عليه الصلاة والسلام.والذي يصرف الفرد عن الفكرة ويحرمه استعداد تقبلها مستواه الفكري أو مستواه الخلقي والأهواء المسيطرة والنزعات التي تعمي عن رؤية الحق ، ويضاف الى كل ذلك المشاغل التي تصرف عن تقدير الفكرة وتشغل الفرد عن وعيها .

وتنطبق في مجتمعنا هذه المعاني كلها ، فالفكرة الاسلامية لا تدرك ادراكا صحيحا وأن أماثلنا قد استنفذت جهودهم الدنيا

---

(١) سورة الجمعة ـ الآية ٥ .

وانحطت همتهم وتدنت مستوياتهم الفكرية والخلقية والإرادية عن مستوى الفكرة الاسلامية ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب ارضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ،وكان منها اجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

والمؤسف أن المسلمين يحملون معاني لا تتفاعل ونفوسهم أي تفاعل ولكنها تكسبهم غروراً ، فهم يستطيعون التحدث في كل معنى ويفيضون في كل حديث يدعو الى خير ويشيد بمكرمة ولكنهم يعرفون ذلك معرفة كلامية يتبجح بها صاحبها ، ولقد كان الجهل خيرا من هذه المعرفة .

هؤلاء الذين يتأثرون بفكرة الحق ويناضلون في سبيلها لا بد أن يسبق بلوغهم هذه المرحلة مرحلة أخرى هي التعطش الى معرفة الحقيقة والبحث عنها وتتسم هذه المرحلة بالسمات التالية :

١ ــ شوق الى معرفة الحقيقة وتعطش الى الوصول اليها واخلاص لها وبذل الوسع في سبيل بلوغها .

٢ ـ ايثار للحقيقة على كل ماعداها •

٣ ـ تيقظ كامل لما يضع الناس من عقبات في سبيل سدل الستار على الحقيقة واخفائها عن أعين الناس •

الجماعة :

ولا يتم شيء من المعاني التي ذكرت الا ضمن الجماعة ولذا كان وجود الفرد في الجماعة أمرا ضرورياً دينياً • يروي الترمذي في حديث صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

((آمركم بخمس، بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد ومن خرج من الجماعة فكأنما نزع ربقة الاسلام من عنقه)) •

ان معنى الأخوة ومعنى التعاون لا يتحققان الا وسط الجماعة والجماعة خير عون للفرد ، تذكره اذا نسي وتوقظه اذا غفل وتدفعه اذا أبطأ •

ولا يتم معنى الجماعة الا اذا شعر الفرد بالاعتزاز بانتمائه اليها والطمأنينة في وجوده فيها ، وأنها حققت أمانيه ، وأنه الى جانب ذلك خلية في الجماعة يمدها ويستمد منها ، وأنه لبنة أساسية في بنائها ، خلية اذا انفصلت عن جسمها عدمت واذا ظلت متصلة به ظلت تستمد الحياة ، والجسم تتكامل وظائفه بشتى خلاياه ويضيره أن يفقد واحدة منها •

المحاضرة الثانية

من المسؤول عن تخلفنا ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا ايها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » سورة الصف ٤ .

من المسؤول عن تخلف المسلمين وتأخرهم ؟ .

هذا سؤال من الأسئلة الهامة جداً التي تناقش في كثير من الأحيان في سمر السامرين وحديث المتحدثين على مستوى هو مستوى التسلية وليس مستوى الجد ، وفي هذا المستوى مستوى العفوية تنطلق الألسنة على سجيتها ، ويعبر الفرد عما هو مستكن في أعماق نفسه . وفي مثل الموضوع الذي نحن بصدده نجد مثلاً لتشتت النفوس المسلمة وتباعداً ، ومحاولة كل فريق إلقاء التبعة على الآخرين لتبرئة نفسه ، وإقامة الدليل على أن المسؤول هو غيره . وهذه الحالة النفسية الواقعة في المجتمعات الإسلامية لها نتائجها الخطرة : فهي مغالطة نفسية يغالط الفرد فيها نفسه ويخادع ضميره ، وقد فطن لها علماء النفس وسموها حيلة لاشعورية ، وهي من أنواع الحيل التي يفعلها الإنسان بفطرته ليخلص من عتاب نفسه ومحاسبة ضميره . ذلك أن حالة الشعور بالخطأ وتأنيب الضمير حالة مؤلمة لا يطيقها الإنسان ، إذ أنها تحدث اضطراباً في اتزانه وقلقاً لراحته ، فيحاول الخلاص منها . ولا يتم الخلاص إلا باقتناع داخلي بأنه ليس مخطئاً ، ولا يتم هذا إلا بأن يحصر الخطأ في آخرين .

\- ١ -

كيف نواجه المسؤولية ؟

الدفاع عن الذات بشكل حيل لا شعورية :

إننا حين نتحدث عن المجتمع الإسلامي **وحين نبدأ بالشعور بالألم نجد** المعاذير قد تبدت والواناً من الحجج الواهية قد برزت **مسوغة ما نحن فيه من تقصير ، معلنة أن الأمر لا دفع له ، وأنه ليس بيدنا حول ولا طول** . ذلك أن ما هو واقع من فعل القدر ، ومن يستطيع رد القدر ؟! وهذا الواقع قد أخبرت به الروايات الصادقة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهو إذن لا بد من وقوعه وأي محاولة لدفعه محاولة تؤدي إلى الإخفاق . فقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الايمان من حديث ابي هريرة **« بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء »** . وفي رواية له من حديث ابن عمر . **« إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها »**(١) .

---

(١) يأرز : اي ينضم ويجتمع . وبين المسجدين اي مسجدي مكة والمدينة عن « صحيح مسلم بشرح النووي » ج٢ المجلد الاول ص ١٧٧ .

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث شداد بن أبي عمار، قال : حدثني جار لجابر عن جابر قال : قدمت من سفر فجاءني جابر ليسلم علي ، فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا ، فجعل يبكي • ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً»•

قال الهيثمي وجار جابر هذا لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح ورمز السيوطي للحديث بالحسن •

وهناك أعذار ترجع الأمر إلى الماضي وإلى التاريخ فما نحن فيه انما هو ثمرة الأيام الماضية وتتيجتها ، وليس لنا فيه صنع ، ولا دخل لنا به • وهناك أعذار أخرى ترجع الأمور إلى تضافر الناس جميعاً في الشرق والغرب على حرب المسلمين والكيد لهم واستعمار بلادهم واستعباد أفرادهم ، وإلا لكان المسلمون بنعمة وعافية •

وهنالك أعذار وأعذار ••••••

هذا الدفاع عن أنفسنا ، وهذه الأعذار كلها مغالطات نفسية وحيل لا شعورية • ذلك أنها تريد أن تبرئنا من كل خطأ ، وتزيح عن كواهلنا الاعتراف بالتقصير •

وهذه الحالة شبيهة إلى حد كبير بحال الطالب الذي يخفق في امتحان آخر العام ، فيعزو إخفاقه إلى سوء طالعه فلقد درس

الكتاب كله لم يفته منه شيء إلا الأسئله التي جاءت في الامتحان، فهو الحظ السيء ، وليس تقصيره • وقد يعزو اخفاقه إلى صعوبة الأسئلة وتعقدها وإلى سوء الدراسة في المدرسة وتقصير المدرس ، أو إلى سوء الأنظمة كلها •••

كل هذه الأعذار التي يذكرها الطالب قد تكون صحيحة ، ولكن هناك عنصراً هاماً له دخل كبير جداً في نجاح الطالب واخفاقه كان يجب أن يذكر إلى جانب كل العوامل التي سبقت ، ذلك هو عزيمة الطالب الماضية التي تحمله على دراسة الموقف قبل الإقدام عليه ، وهذه الدراسة تؤدي إلى تحديد المشكلات التي يواجهها والتخطيط لها للتغلب عليها واحدة بعد واحدة • وهذا التغلب متناسب مع تصميم الطالب وصدق عزيمته ، وهذا متناسب أيضاً مع ثقة الطالب بنفسه وايمانه بأنه قادر بعون الله على مواجهة المصاعب والتغلب عليها ، ثقة قائمة على الخبرة مشفوعة بالعمل متجافية عن الغرور •

هذا الطالب الذي يقدم على الدراسة وهو مقدر الموقف قدره يدرس المشكلات ويذلل الصعوبات ويوطىء العقبات، يكتب له النجاح • والطالب الآخر الذي ينام في عامه كله وتفتنه وسائل اللهو وهو يحسب أن النجاح في آخر العام في متناول يده ، سيفاجأ بالإخفاق ، ويصب غضبه على الأسئله والأنظمة والمدرسين •••

إني أجد كل فرد في المجتمعات الإسلامية شبيهاً إلى حد كبير بطلاب المدرسة مع فارقين : أولهما أن الطالب على الغالب يشعر بهيبة الامتحان ويعد له العدة ، أكثر بكثير مما يفعل أكثر أفراد المجتمع الاسلامي ، ولذلك كانت نتيجة المجتمعات الاسلامية الاخفاق الغالب المطبق المؤلم .

والفارق الثاني أن صعوبة الامتحان في المجتمعات الاسلامية لا يصح أن تقاس بالصعوبة التي يلاقيها الطالب في الامتحان .

إن المشكلة ههنا أكبر بكثير ، والاستعداد لها أضأل بكثير . وهنا كانت الطامة ، صعاب من أكبر الصعاب ومشكلات من أعظم المشكلات ، وفتن تحارُ بها العقول ، وأنواع من المكر تشيب لها الولدان . كل ذلك يقابل بنفوس ضعيفة وعزائم مسترخية وهمم مستخذية .

الاعتذار بالقدر :

ولكن أم المشكلات وكبرى العقبات هذا القدْر المشترك بين نفسية الطالب المخفق في نهاية الامتحان الذي يلقي اللوم على الأسئلة التي وضعت ، وبين نفسية المسلمين الذين أخفقوا في ميادين الحياة وجولات البطولة ، وينحون باللائمة على القدر وعلى الأيام وعلى الآباء والأجداد وعلى كيد الكائدين من الأعداء . ولا يخطر في بال أحدهم أن يعود على نفسه بذرة من اللوم ويسير من العتاب يبصره بخطئه ، ويضع يده على تقصيره .

إن الاعتذار بالقدر حيلة شيطانية وخديعة من الانسان لنفسه .

فالذي يرتكب معصية ، ويلوم القدر كذاب أشر . هكذا جاء في الآية القرآنية .

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء »(١) .

فرد الله تعالى عليهم بقوله : **« كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن انتم إلا تخرصون » (٢) .**

وهكذا شأن من قصر في أداء واجب واتهم القدر ، كاذب في دعواه .

إنّ تقصيره أمر واقع محسوس ملموس ، وتقصيره مرده إليه . فكيف يدع الاعتراف بتقصيره الذي يدركه ويحسه ويفر إلى القدر ، وهو أمر مغيب مجهول ليس إليه تدبيره وليس له به علم .

ولقد دفع أصحاب رسول الله القدر بالقدر ، دفعوا الكفر والفسوق بالجهاد والاستبسال والموت ، وغيروا وجه الدنيا وأطفؤوا عبادة الأوثان بالإيمان الصادق .

(١ـ٢) سورة الأنعام ـ الآية ١٤٨ .

أما في مجتمعنا الاسلامي ـ فمع الأسف الشديد ـ حين يتحدث المتحدثون عن واقع المسلمين وما يلاقونه في شتى ديارهم ومختلف أصقاعهم من ظلم وعسف وبغي واضطهاد ، وحين يشعر فريق من المسلمين بوخز يسير في ضمائرهم وألم طفيف في مشاعرهم، ينبري هؤلاء أنفسهم يدفعون عنهم ما يجدون ، فيسوغون لأنفسهم ما هم فيه من قعود ونكوص بألوان من المعاذير وأصناف من الحجج الواهية : فالزمن قد أدرك نهايته والفتن كقطع الليل .

وبمثل هذه الحجج التي يقدمها الشيطان وتسولها النفوس المريضة ، سبعمائة مليون مسلم في العالم الإسلامي يسامون سوء الخسف ويتلظون بنار الهوان ، وينطلقون جميعاً بدعوى واحدة ، دعوى الضعف والموت المعنوي . وبهذا الفهم السقيم الهزيل وبهذه الروح الضعيفة الخائرة يعطل المسلمون معاني الاسلام القوية ، ويصمون آذانهم عن نداءاته التي تتصدع لها الجبال ، ويعرضون عن رفع رايته والاستظلال بعظمته .

كثير منا اليوم ـ أعني المسلمين ـ يتصفون بصفات بعيدة عن صفات المؤمنين حقاً وهم يرون أنهم أحسن الناس إيمانا . ألسنا نعتذر بمعاذير شبيهة بالمعاذير التي كان يقدمها المنافقون حين قالوا:

« **لا تنفروا في الحر** »(١) فقال لهم الله تباركت أسماؤه :

---

(١) سورة التوبة ـ الآية ٨١ .

((قل نــار جهنم أشــد حراً لو كانوا يفقهون . فليضكحوا قليلاً وليبكوا كثيراً ، جزاء بما كانوا يكسبون)) (١) . وقال تعالى حاكيا طريقتهم في الاعتذار فاضحاً نواياهم كاشفاً عن نفوسهم الخاسرة وقلوبهم المريضة. قال تعالى على لسانهم: **((يقولون إن بيوتنا عورة))**(٢) فرد الله تباركت أسماؤه عليهم بقوله : **((وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فرارا))**(٣) . ونحن اليوم نقول ــ وإني لفي طليعة هؤلاء القائلين ــ: لا نستطيع أن نعمل في سبيــل الله ، ولا نستطيع أن نجاهــد في سبيله ، نخشى أن نتخطف من الأرض ، ونخشى أن يموت أولادنا وأهلونا جوعاً . والحق أنا ما نريد إلاّ فراراً . وقد نسينا قوله تعالى : **((إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابــوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون))**(٤) نسينا قوله تعالى : **((إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهــم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون))**(٥) . يتوكلون على ربهم فلا يخشون موتاً ولا يخشون فقراً .

---

(١) سورة التوبة ــ الآية ٨٢ .

(٢) سورة الأحزاب ــ الآية ٣٣ .

(٣) سورة الأحزاب ــ الآية ٣٣ .

(٤) سورة الحجرات ــ الآية ١٥ .

(٥) سورة الأنفال ــ الآية ٢ .

وقد حكى الله تباركت أسماؤه قولة المنافقين في غزوة أحد حين رجعوا عن القتال فجرى وراءهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر بن عبد الله فقال : يا قوم أذكركم الله ألاّ تخذلوا قومكم ونبيكم . فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الانصراف قال أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه .

قال تعالى : « **وإذا قيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم** »(١) . لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ، ولكنه القاء بالنفس إلى التهلكة . وقال تعالى في شأنهم « **هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان** »(٢) . وقال تعالى « **يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم** »(٣) . وقد بينوا حالهم وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم .

إن معاذير المسلمين اليوم ليست معاذير صادقة ، ليست تلك المعاذير التي يصدق عليها قوله تعالى « **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله** »(٤) ولكنها يصدق عليها

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٦٧ .

(٢) سورة آل عمران ــ الآية ١٦٧ .

(٣) سورة آل عمران ــ الآية ١٦٧ .

(٤) سورة التوبة ــ الآية ٩١ .

قوله تعالى : ((**ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين**))(١) . ومن المعاذير التي يقدمها المسلمون وفيها ضلال عن دين الله ، وانحراف عن كتاب الله ؛ الاعتذار بالقدر ، وأن ما هو واقع بالمسلمين أمر الله وقضاؤه ولاراد لأمره ولا دافع لقضائه . ولست أنسى مسلماً من المسلمين كان خطيباً في قرية من قرى الشام مدعياً محبة العلم وأهل العلم ، كنت أكلمه فيما أصاب المسلمين فأراد نصحي ودعوتي إلى الخير فتلا علي قوله تعالى : ((**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**))(٢) ، ثم تلا قوله تعالى ((**ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما**))(٣) . فهو يرى كمال الايمان في التسليم والرضا والاذعان وإن طغى الكفر وعم الفسوق . وكدت اتميز من الغيظ للذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولكني تصنعت الأناة وتكلفت الحلم ، وحاولت أن أخرجه مما هو فيه من ضلال وزيغ .. وقد اقتنع عقله بعد جهد جهيد بخطأ قوله واعتقاده .

كثير من المسلمين يحتجون بالقدر ، ويتخذون من حجتهم هذه ذريعة للمضي في دنياهم وسعيهم من أجلها وتهالكهم عليها وقعودهم عن نصرة دين الله .

---

(١) سورة التوبة ــ الآية ٤٦ .
(٢) سورة الأحزاب ــ الآية ٣٦ .
(٣) سورة النساء ــ الآية ٦٥ .

قال الإمام شمس الدين ابن القيم الدمشقي رحمه الله تعالى في كتابه « طريق الهجرتين » بعد أن سرد أحاديث القدر :

« فالجواب أن ههنا مقامين : مقام ايمان وهدى ونجاة ، ومقام ضلال وردى وهلاك • فأما مقام الايمان والهدى والنجاة : فمقام إثبات القدر والايمان به ، واسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاء الناس •

الآثار كلها تحقق هذا المقام وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه • وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله •

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك ؛ فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء • وسمعته ــ يعني شيخ الاسلام ابن تيمية ــ يقول :

القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثه : نفاة القدر : وهم (القدريه المجوسيه) والمعارضون به للشريعه الذين قالوا : لو شاء الله ما أشركنا وهم (القدرية المشركه) والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم (القدرية الابليسية) وشيخهم ابليس وهو أول من احتج

على الله بالقدر قال (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم)[1] ولم يعترف بالذنب ويبؤ به كما اعترف به آدم • فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ومن أشبه أباه فما ظلم ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه ابليس ••••

وأما (القدرية الابليسية والمشركية) فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله ، لا يقر بأمر ولا نهي وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم : (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ••••)[2] • وقال تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)[3] •وقال تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)[4] • وقال : (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين)[5] •

فهذه أربعة مواضع في القرآن الكريم بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل » •

---

(١) سورة الأعراف ــ الآية ١٦ .
(٢) سورة الأنعام ــ الآية ١٤٨ .
(٣) سورة النحل ــ الآية ٣٥ .
(٤) سورة الزخرف ــ الآية ٢٠ .
(٥) سورة يس ــ الآية ٤٧ .

تحريف معاني الاحاديث الصحيحة لتسويغ قبول الواقع :

كذلك احتج كثير من المسلمين بالأحاديث التي جاءت في كتب الفتن وقد اساؤوا فهمها ، وعكسوا الغرض منها . ولكم سمعنا من خاصة المسلمين وعامتهم أن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قد قال :

((لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم)).

وهؤلاء جميعاً يستخلصون من قول رسول الله أن الأمر ميؤوس منه ، فأي فائدة في الدعاء وأي ثمرة من النداء ؟.

وهكذا تنحدر النفوس الضعيفة بالمعاني السامية فتنزلها الى مستواها المتدني ، وهكذا تفهم هذه النفوس تحذير رسول الله من الفتن وتخويفه منها على أنها دعوة لتيئيس الناس من العمل ومن الجهاد ، وتعطيل لآيات الكتاب الذيلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . كيف يمكن مع فهم هؤلاء أن نستجيب لقول الله تعالى .

((فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتلفي سبيل اللهفيقتل أويغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما))(١).

وقوله تعالى **((وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه**

---

(١) سورة النساء ــ الآية ٧٤ .

القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا)) (١) .

وقوله تعالى ((**ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ،ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون))(٢).**

وان الله تباركت أسماؤه قد أخبرنا بأن الشدائد تصيب المسلمين ويدال عليهم ويغلبون ليتبين المؤمنون ، ويتقدم المجاهدون . ولو أن المسلمين أخذوا برأي هؤلاء اليائسين الميئسين لاستسلموا للتتار ، ولغارات الصليبيين أبد الدهر ، ولما وجد من يحمل الراية في الأيام العصيبة ، ويقدم نفسه وماله في ساعات الشدة .

أيعقل أن يكون الغرض من حديث رسول الله صلوات الله عليه ، وهو يحذر أصحابه الفتن وهو سيد المرسلين وقائد الأبطال الميامين وهو الذي قدم أعلى مثل لحياة المجاهد الذي لا يفتر ولا يكل ولا يغفل طرفة عين . الذي يقول : « والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار » وقد أخرج هذه القصة مختصراً الطبراني في الأوسط والكبير . أيعقل أن يكون كلامه دعوة لليأس واستسلاما للقنوط ؟! لا وأيم

---

(١) سورة النساء ــ الآية ٧٥ .

(٢) سورة آل عمران ــ الآية ١٥٨ .

الحق ، ولكنها وسوسة ابليس وحيلة ضعيفة من نفوس خائرة هزيلة .

ليس كلام رسول الله بهذه المنزلة التي وضعوه فيها ، ولكنه أجلّ وأرفع . وما غرض رسول الله عليه صلوات الله الا التنبيه للفتن ، حتى اذا أدرك المسلم زمانها ، أخذ حذره وأعد لها عدته ، وعاش عيشة اليقظ المتحفز ، يخشى أشد الخشية أن تأخذه الفتن في مسيرتها أو أن تطويه في ثناياها .

ولقد ملكت الفتن كثيرا من المسلمين ، وطوت كثيرين ، لم تدع بيتاً الا دخلته ولا مسلما الا سخرته ، وطغت في بلاد المسلمين وطمت وعمت ، والمسلمون غافلون ، وكثير منهم يحسب أنه في منجاة من تلك الفتن التي ذكرها رسول الله عليه صلوات الله .

ومن عجب أن يقلب المسلمون معاني كتابهم ومعاني سنة نبيهم لتصبح معاني رخيصة ويصبح الغرض منها الرضا بالواقع الأليم . ولقد صدّر البخاري كتاب الفتن في صحيحه بقوله تعالى:

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »(1) .

والفتنة في الأصل : ادخال الذهب في النار لتظهر جودته . ومن هنا كانت الفتنة بمعنى الاختبار ، وتطلق على العذاب . قال في القاموس : « والفتنة : الضلال والاثم والكفر والفضيحة والعذاب

---

(1) سورة الأنفال ــ الآية ٢٥ .

والاضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء » • وعلى هذا فالسكوت على المنكر وتفرق الكلمة، والقعود عن الجهاد ، وتقليد اليهود والنصارى ، كل هذا من الفتن •
وقوله تعالى :

« لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » :

أي ، إن اصابتكم فلا تقتصر اصابتها على الذين ظلموا وحدهم ، بل تشملهم وغيرهم ، وتعم الجميع بسبب شؤم الصحبة، وتعدي الرذيلة كقوله تعالى :

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس »(١)
فالآية الكريمة تحذير للمؤمنين من وقوع الفتنة في المجتمعات الاسلامية ، وبيان لطبيعة الفتنة ومبلغ شرها • فهي تبدأ في عدد يسير من الأفراد ، ثم لا تلبث أن يستفحل أمرها ويطغى شرها ، فاذا انتهت إلى هذا الحد خرجت من أيدي المصلحين ، ولم يعد بالامكان كف شرها أو كبح جماحها ، وهذا هو المشاهد الملموس اليوم في البلاد الاسلامية في فتنة المدنية الغربية • وواجب المسلمين الوقوف أمام الفتنة وقطع دابرها من يومها الأول • هذه تعاليم القرآن وهدي محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد جاءت الأحاديث محذرة أولئك الذين ينساقون في تيار الفتنة •

فلقد روى البخاري في صحيحه عن أسماء بنت الصديق رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) سورة الروم ـ الآية ٤١ •

« انا على حوضي أنتظر من يرد علي ، فيؤخذ بناس من دوني (أي يؤخذون من عند رسول الله عليه صلوات الله) . فأقول : أمتي! فيقول لا تدري مشوا القهقري » . قال ابن أبي ملكية أحد الرواة من التابعين :

«اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن» فهل يفهم من الحديث إلا التحذير من الوقوع في الفتنة . وأعظم الفتن اليوم فتنة المدنية الغربية في فلسفتها وآرائها الزائفة وعبادتها للمـــادة وافتتانها بالمال والنساء ، ولهوها ولغوها وغنائها وفجورها ؟. والرواية الثانية يرويها البخاري عن مغيرة عن أبي وائل ، قال : قال عبد الله:قال النبي صلىاللهعليهوسلم: «أنا فرطكم على الحوض (الفرط : المتقدم إلى الحوض ليهيئه لأصحابه) ليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني (أي سلبوا مــن عندي) فأقول : أي رب أصحابي يقول:لاتدري ما أحدثوا بعدك» .

وجاءت الأحاديث تبين ما على المؤمن أن يفعل في أيام الفتن : روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات مات ميتة جاهلية » . وفي الحديث الأمر بالصبر وليس المراد من الصبر السكوت على المنكر. يعارض ذلك الأحاديث الواردة في التحذير الشديد من السكوت على المنكر ، كما يعارضه الحرص على الجماعة . فهل يستقيم أمر الجماعة إذا عمّ المنكر ؟ ولكن الحديث فيه هدى إلى لزوم

الجماعة ، والصبر على الدعوة إلى الحق وعدم السكوت عن المنكر وعلى النصح لأئمة المسلمين وعامتهم .

وروى البخاري في صحيحه عن الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد أرشدنا الحديث إلى الصبر على التزام الأوامر واجتناب النواهي مهما اشتدت الأمور واحلولك الظلام . وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس والطبراني عن أم مالك اليهبزية « خير الناس في الفتن رجل آخذ بعنان فرسه خلف أعداء الله يخيفهم ويخيفونه ، ورجل معتزل في بادية يؤدي حق الله الذي عليه » . قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي . قال النووي : في الحديث بيان فضل العزلة في أيام الفتن ، إلا أن يكون له قوة على إزالة الفتن فيلزمه السعي في إزالتها عيناً وكفاية .

والحديث واضح بيّن يهدي إلى العلاج الناجح ، ويرشد إلى أنه ليس هنالك إلا سبيلان لا ثالث لهما : إما اعتزال الفتنة اعتزالاً تاماً بحيث لا يمسه أثرها ولا يصل إليه رشاشها ، وإما الخوض مع أعداء الله حاملي لواء الفتنة يخيفهم ويخيفونه ويجاهدهم لإطفاء نارها وإخفاء معالمها . أما أنصاف الحلول بأن نعيش في رحاب الفتنة ، ونفتح لها صدورنا ومنازلنا فتصيب

أبناءنا وأهلينا وتجتاح ديارنا ، ثم نبكي بدموع كاذبة ، فليس ذلك مما وصفه رسول الله وأرشدنا إليه ، ولكنه أرشد إلى أمرين لا ثالث لهما ، إما أنك ضعيف لا تستطيع مصاولة أعداء الله دعاة الفتن فلا مقام لك بينهم ولا مستقر لك في أرضهم ، ولكنك تجافيهم في بادية بعيدة وتتجنبهم وتقاطعهم . وإما الثانية : المصاولة والمقارعة . والثانية خير وأحب إلى الله ، ولسنا اليوم في الأولى ولا الثانية ولكنا منغمسون في الفتنة ساكتون عليها متأولون لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الاحتجاج بالاحاديث الموضوعة للتهرب من المسؤولية :

روى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا كانت امراؤكم خياركم ، واغنياؤكم سمحاءكم ، وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كانت أمراؤكم شراركم ، واغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

وأني لأعلم أن مثل هذا الحديث يروق كثيراً من المسلمين ، ويصيبهم شيء من الخشوع لدى سماعه ، ذلك أن معانيه في رأي كثيرين تنطبق على حال أكثر المسلمين في أكثر البلاد الاسلامية اليوم ، والحديث يقول : فبطن الأرض خير لكم من ظهرها . والشارح المناوي يقول : فلا حرج في تمني الموت حينئذ . ويبين

الشارح سبب ورود الحديث فيقول : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مِتَّ فظهر الأرض خير لكم أم بطنها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فذكره » .

ولعلي أفجع كثيرين حين أقول : **إن الحديث غير صحيح . وإن المعاني التي تضمنها من تمني الموت يجب أن تنتزع من قلوب المسلمين انتزاعاً** . أما كونه غير صحيح ، فالترمذي راويه يقول : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح المري . وصالح في حديثه غرائب لا يتابع عليها وهو رجل صالح » . يريد الترمذي أن هذا الحديث لم يروه إلا راوٍ واحد هو صالح المري، وصالح المري له غرائب لا يتابعه الرواة عليها ، أي أنه يروي مرويات ليس في رواة الحديث من يقبلها ويؤيد صدق روايتها وهذا طعن فيه ويسمى من هذا حاله « منكر الحديث » .

ومن الخير ألا نكتفي بقول الترمذي وحده بل نرجع إلى أقوال النقاد الآخرين لنطمئن إلى حال صالح المري هذا : أما ابن حجر فيوجز القول بشأنه في (تقريب التهذيب) فيقول : «صالح بن بشير المري : القاص الزاهد ، ضعيف » . وهكذا يتسامح ابن حجر ويكتفي بوصفه بالضعف . فإذا أردنا زيادة تفصيل ورجعنا الى (ميزان الاعتدال للذهبي) نجده يقول : « ضعفه ابن معين والدار قطني ، وقال الفلاس : منكر الحديث جداً ، وقال النسائي متروك ، وقال البخاري منكر الحديث ، وقال أحمد : هو صاحب

قصص ولا يعرف الحديث » • وروى حاتم بن الليث عن عفان قال : « كنا نحضر مجلس صالح المري فاذا أخذ في قصصه كأنه رجل مذعور يصرعك أمره من حزنه وكثرة بكائه كأنه ثكلى ،كان شديد الخوف من الله » •

فالحديث بايجاز يتفرد بروايته قاص ّ يعرف القصص ولا يعرف الحديث • وشأن القصاصين أنهم يروون من الحديث مالاسنام له ولا خطام ، ينسبونه الى رسول الله عليه صلوات الله •

لا يدعو الاسلام اتباعه الى الموت ولكنه يدعوهم الى الحياة، وليس في معاني الاسلام معنى تمني الموت وان اشتدت الفتن ، وليس في الاسلام فقدان كل أمل وضياع كل رجاء ولكن روح الاسلام روح الأمل وروح الجهاد وروح القوة المستمدة من عند الله ، والثقة بنصره والاطمئنان الى عونه •

أين يقع تمني الموت من قوله تعالى :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (١) •

يخاطب بها المؤمنون في الماضي كما يخاطبون بها اليوم والى أبد الدهر ولفظة « الأعلون » فيها تشريف وتكريم ليس بعده تكريم • وصف بها الله جل شأنه انبياءه ، فقال لموسى عليه السلام:

« إنك أنت الأعلى »(٢) •

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٣٩ •

(٢) سورة طه ـ الآية ٦٨ •

وبمثل هذا الخطاب خاطب الله جل شأنه هذه الأمة الاسلامية. فهل يتفق مع هذا تمني الموت في حال القعود والفرار من مقابلة العدو ؟

إن الذي يتمنى الموت على فراشه ضعيف ذليل جبان قد فقد كل أمل ، وأضاع كل رجاء ويئس من كل خير ، وكل هذا يتنافى وصفات المؤمن ويتنافى وتعاليم الاسلام ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام :

« لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » . وقال عليه الصلاة والسلام : **« لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم او خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس »** . وقال عليه الصلاة والسلام : **« من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناواهم إلى يوم القيامة »** . وقال عليه الصلاة والسلام : **« لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك » كل هذه الروايات في صحيح مسلم .**

نعم صح عن رسول الله عليه صلوات الله أنه دعا فقال «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي . وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي » رواه النسائي والحاكم وأحمد عن عمار بن ياسر . واين هذا من تمني الموت ولكنه دعاء

يوحي بعدم الحرص على الحياة ، ولا يعطي الروح السلبية التي يعطيها تمني الموت ، والمرء مستضعف مستذل • وتمنى أصحاب رسول الله الموت فعاتبهم جل شأنه لا على على تمني الموت ، ولكن على جبن أصاب بعضهم حين رأوا الموت • قال تعالى :

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »(١) •

فالذي تمناه أصحاب رسول الله الموت والشهادة في سبيل الله ، وهذا هو المعنى الذي يجب أن يشيع بين المسلمين ويملأ قلوبهم وتلهج به ألسنتهم •

وكيف يتمنى المؤمنون الموت بعد رسول الله عليه صلوات الله ، وقد أمروا أن يحملوا رسالته ويبلغوا دعوته ويقتفوا أثره ويثبتوا على طريقته ، وقد اخبرهم عليه صلوات الله بأن الأمر سيتم وبأن قصور كسرى وقيصر ستفتح عليهم ، وبأنهم يستخلفون في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم •

أيتناسب هذا الدفع وهذا الانطلاق في حمل أعباء الدعوة والموت في سبيلها ، مع تمني الموت ؟!• إن حمل الرسالة ، وتبليغ الدعوة واجب المسلمين في كل زمان وفي كل حين •

يجب أن تنتزع هذه المعاني من قلوب المسلمين ، معاني الضعف واليأس والخور لتحل محلها معاني الايمان،معاني الشهادة والموت في سبيل الدعوة •

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية ١٤٣ •

لقد كان حزن أصحاب رسول الله على رسول الله عظيماً حين وفاته ، فلقد انقطع لموته ما لم ينقطع لموت نبي من قبله . ولكن أمراً عظيماً هو أكبر من الحزن ، حمل رسالته والمضي في دعوته ، ولا يتم هذان الأمران إلا على ظهر الأرض لا في بطنها ، ولا يتمان إلا على جثث الشهداء وأرواح المقاتلين في سبيله .

إن كلمة أنس بن النضر رضي الله عنه ، هي النبراس الذي يجب أن يملأ قلوب المؤمنين حين قيل له إن محمداً قد مات فقال : **« لئن مات محمد فإن رب محمد حي لا يموت ، قوموا فقاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه »** . وقاتل حتى استشهد ، وعلى جثته وجثة أصحابه السابقين بني صرح الاسلام .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ، مجاهدة العبد هواه » .

هذا الحديث مشتهر بين المسلمين ، أثير لدى كثير منهم ذلك أنه في هذه الشدائد والمحن ، يعطي هذا الحديث وأمثاله كثيراً من المسلمين شيئاً غير يسير من الطمأنينة في أن ما هم فيه هو الجهاد الأكبر ، وأي طمأنينة أعظم من أن يكون المرء في الجهاد الأكبر ؟ ولكن الحديث يرويه الخطيب البغدادي في ترجمة واصل الصوفي، ويرويه الديلمي عن جابر رضي الله عنه ، ويقول البيهقي بشأنه اسناده ضعيف ، ويتبعه العراقي فيحكم بضعفه أيضاً ، وكذا السيوطي في جامعه الصغير يحكم على الحديث بالضعف .

ومثل هذه الأحاديث الضعيفة يسبب في نظري كثيراً من الانحراف عن معاني الاسلام الصحيحة لدى المسلمين ، ذلك أن هذا الحديث يسمي القتال والوقوف أمام أعداء الله جهاداً أصغر ، القتال الذي يحبه الله جل شأنه ويقول فيه تباركت أسماؤه :

« إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »(١) .

والذي يسميه جل شأنه بيعاً للنفس والمال يشتريها الخالق القادر جل جلاله . يقول تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون »(٢) .

والجهاد من أخص صفات المؤمنين وأعلى ميزاتهم يقول تعالى :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون »(٣).

ووصف تباركت أسماؤه الصادقين فيالجهاد بأنهم :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً »(٤) .

---

(١) سورة الصف ـ الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة ـ الآية ١١١ .

(٣) سورة الحجرات ـ الآية ١٥ .

(٤) سورة الأحزاب ـ الآية ٢٣ .

ووصف الجهاد تباركت أسماؤه بأنه سبب دخول الجنة ،وأن من يحسب أنه يدخلها من غير أن يدخل في غماره فهو بعيد عــن الصواب • قال تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »(١) •

ويصف جل شأنه أن الذين يستشهدون في سبيل الله :

« احياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله»(٢)•

ويقول بشأنه محمد عليه الصلاة والسلام عن أبي هريــرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيــل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور» رواه الشيخان البخاري ومسلم •

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أي العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أي ؟ قال الجهاد في سبيل الله • رواه البخاري ومسلم أيضاً •

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٤٢ .

(٢) سورة آل عمران ــ الآية ١٧٠ .

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال قلت يارسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « الايمان بالله والجهاد في سبيله » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » رواه الشيخان .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً . ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » . رواه مسلم وروى البخاري بعضه .

وعن أنس بن مالك يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة قال : « قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل قال لا تستطيعون قال فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول : لا تستطيعونه • وقال في الثالثة: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت (المطيع) بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى » (متفق عليه) • وفي رواية البخاري : « أن رجلاً قال يارسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد قال : لا أجده • ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر فقال ومن يستطيع ذلك » •

وبعد هذا كله يسمى قتال العدو جهاداً أصغر فما هو الجهاد الأكبر إذن ؟!

— ٢ —

من المسؤول إذن ؟

من أين أتي المسلمون ؟

روى أبو نعيم في (الحلية) عن ابن عباس أن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قال : « صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » .

إن هذا الحديث في أدنى درجات الضعف ، وأنه لا يصلح للاحتجاج به .

وليس الذي ينكر أن العلماء هم حياة الأمة ، ولكن الذي ينكر أن يقعد الناس حيارى كسالى ضائعين ، أو يحسبوا أنهم ليسوا مسؤولين إذا افتقد العلماء أو ضعفوا عن القيام بواجبهم . بل الواجب في مثل تلك الحال ، تقديم الجهود وبذل الوسع والتفكير الجدي العميق لافتتاح المعاهد وانتقاء خيرة الطلاب لها والتحري عن صفوة العلماء وخيرة المدرسين في العالم الاسلامي كله ليقوموا بالتدريس فيها .

وإن كون العلماء حياة الأمة وأساس منطلقها الى الخير، يجب ألا يخفف في نفوسنا معنى المسؤولية الفردية ومعنى القيام بالواجب .ويجب ألا ينسينا الأوامر العظيمة والتحذيرات الخطرة في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، الدافعة لكل فرد مسلم إلى بيع النفس والمال في سبيل الله ، أي في سبيل دعوة الحق وفي سبيل الأمة الاسلامية والانسانية كلها .

إن حالة سيئة جداً تشاهد في البلاد الاسلامية لدى طلاب الكليات ـ وهم العنصر الهام في بناء الأمة ـ ولدى العلماء والمثقفين والمفكرين ، كل هؤلاء لا تجد لديهم حرارة الاندفاع في سبيل إنقاذ الأمة وفي سبيل اصلاحها ، ولا تجد لديهم طمأنينة الواثق بعمله المؤمن بأن جهاد العامل المخلص ، لا بد وأن يلقى نصيبه من النجاح ، وأن من المستحيل جمع كلمة المسلمين ، ومن العسير القيام بأي عمل مجد .

هذا الطابع الذي طبع عليه المسلمون اليوم ، قلة الاهتمام بشأن الأمة وضعف الثقة والعزوف عن القيام بالواجب الأكبر والجهاد في سبيله ، والاحتجاج بأن المسؤولية تقع على العلماء والأمراء ، هذا الطابع وهذه المعاني هي أخطر ما يهدد الأمة الاسلامية .

اليأس القتال والخور المميت والثقة المفقودة ، كل هذه هي العدو الحقيقي والعقبة الكبرى التي تواجه المسلمين ، أما العدو الخارجي الصهيونية والصليبية والدعوات الملحدة ، فكلها أمرها يهون إذا استطعنا أن نغير ما بأنفسنا لنقر فيها معاني الايمان واليقين والصبر والجلد والثقة والعمل .

إن أكبر الأخطار التي تواجه المسلمين اليوم ، كامنة في النقص في تربية أفرادهم ، والضعف الذي أصيب به أبناؤهم .

وأكبر المصائب أن يصاب الفرد في نفسه ، ذلك أن معالجة أي خطر ممكنة ميسرة حينما تكون تربية الأفراد تربية قوية تستطيع أن تجابه المصاعب وتصمد للشدائد . بين الله تباركت أسماؤه بشأن يهود بن النضير حين غلبهم المسلمون أنهم لم يؤتوا

في نقص في ذخيرتهم أو عددهم أو منعة حصونهم ، ولكنهم أصيبوا من قبل أنفسهم إذ قذف الله في قلوبهم الرعب ، فكان ذلك أكبر المصائب وكان العامل في تسليم ديارهم وتخريب بيوتهم . قال تعالى:

« ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين . فاعتبروا يا أولي الأبصار »(١) .

وقد أتي المسلمون اليوم من قبل أنفسهم ، وقذف الوهن في قلوبهم ، والله تباركت أسماؤه يناديهم من علياء سمائه نداءه الأزلي ، يقول لهم :

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »(٢) .

قال أحد الباحثين المحدثين : « إن الأسباب الحقيقية لكل انحطاط ، داخلية لا خارجية ، وليس علينا أن نلوم العواصف حين تحطم شجرة نخرة في أصولها ، إنما اللوم على الشجرة النخرة نفسها » .

والقرآن الكريم ، يهدي إلى هذه السنة ، ويبين للناس بأن ما يقع على الأمم من ظلم واضطهاد مرجعه إلى الناس أنفسهم وما كسبت أيديهم ، ولذا نجد التعبير بظلم النفس يتكرر في مواطن كثيرة في القرآن الكريم . يقول تعالى :

« وما ظلمنا هم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »(٣) .

---

(١) سورة الحشر ــ الآية ٥٩ .

(٢) سورة آل عمران ــ الآية ١٣٩ .

(٣) سورة النحل ــ الآية ١١٨ .

تحديد المسؤولية :

اذا أجرينا استفتاء في أي مجتمع من المجتمعات الاسلامية ، طارحين السؤال السابق ، لوجدنا أن تسعة وتسعين في المائة من أفراد المجتمع يقولون : إنا لا نحمل أي تبعة ، ولا يصح أن يوجه الينا أي لوم . ذلك أنه ليس بيدنا أية سلطة ، وليس لنا توجيه الأمة ، وإن قلنا فلا يسمع لقولنا ، ولذلك فنحن أبرياء من كل تبعة فدعونا أيها اللائمون ووجهوا سهام نقدكم الى فريقين من الناس **العلماء و الأمراء .**

وليس من شك في أن في هذا القول نصيبا كبيرا من الحق . ولكن ليس الحق كله .

كيف لا يكون في هذا القول نصيب من الحق وقد أوجب الله في كتابه ايجاباً ، طاعة أولي الأمر . وهل تكون الطاعة الا لمن يحمل أمر الأمة ويكون مسؤولاً عنها ؟ قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم »(١) .

والذي يلفت النظر أن الآية الكريمة جاءت متممة لآية سبقتها قال تعالى في الآية الأولى :

---

(١) سورة النساء ـ الآية ٥٩ .

« إن الله يامركم ان تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً »(١) .

أمر جل شأنه في الآية الأولى ، الرعاة والولاة بأداء الأمانات الى أهلها والحكم بالعدل بين الناس ، ثم أمر الرعية بطاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

قال الامام ابن تيمية رحمه الله في رسالته «السياسةالشرعية» : هذه الآية :

« إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

قال العلماء : نزلت في ولاة الأمور ، عليهم أن يؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل . وهـــذا جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة .... قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » .

وفي رواية : « من قلد رجلاً عملا على عصابة ، وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين » . إلى أن يقول : ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب، بل ذلك سبب المنع، فقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله

---

(١) سورة النسـاء ــ الآية ٥٨ .

عليه وسلم : أن قوما دخلوا عليه فسألوه ولاية فقال: « إنا لا نولي أمرنا هذا من طلبه» •وقال لعبد الرحمن بن سمرة: « ياعبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك أن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة **وكلت إليها** » أخرجاه في الصحيحين • ثم يقول رحمه الله : ان بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه بما أدركت فقال أدركت عمر بن عبد العزيز فقيل له : يا أمير المؤمنين: أقفرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شيء لهم ــ وكان في مرض موته ــ فقال : أدخلوهم علي ، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكرا ، ليس فيهم بالغ ، فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : والله يا بني ما منعتكم حقاً هو لكم ، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها اليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح فالله يتولى الصالحين ، واما غير صالح فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله ، قوموا عني » •

وعن أبي ذر قال قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ قال فضرب بيده على منكبي ثم قال « **يا أبا ذر ، انك ضعيف وانها أمانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها** » • رواه مسلم .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة** » ، قيل يا رسول الله وما اضاعتها ؟ قال : « **اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة** » .

يقول ابن تيمية رحمه الله : « وقد أجمع المسلمون على معنى هذا » .[1]

والأحاديث التي سبقت والروايات كلها تدور حول غرض واحد يتصل بولاة الأمر ، ويبدو أنه أكبر مهامهم ونهاية ألمعيتهم وبعد نظرهم ، ذلك هو اختيار الأكفياء وانتقاء الصلحاء وقد جمعت هذا كله الرواية الأخيرة في صحيح البخاري وجعلت ضياع الأمانة مساوية لتوسيد الأمر لغير أهله ، وجعل ذلك كله مساوياً لخراب الكون وقيام الساعة . وهي نظرة لا تخرج الا من معدن النبوة ، فليس صلاح الحال الا بتولية الصالحين ، وليس فساده الا بتولية المفسدين . وليس انتقاء الصالح أمرا يسيرا ذلك أن الصالح الذي يجمع بين الخبرة التامة والمعرفة الكاملة والاخلاص ونزاهة اليد ، نادر أشد الندرة . ولقد أتعب هذا الانتقاء الخليفة العادل عمر بن الخطاب وكان يقول : « اني لأتحرج أن أستعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه » .

ليس من المغالاة أن يقال إن سر عبقرية المسؤولين ، معرفة الأشخاص وحسن انتقائهم . والأمة التي مهرت في هذا في العصر الحاضر هي الأمة الانكليزية ، والمثل السائر عندهم « خير انسان في خير مكان » .

---

(١) ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، دار الكتب العربية ، بيروت ، ص ٥ ــ ١٣ .

أمر جل شأنه الرعاة والولاة بأداء الأمانات الى أهلها والحكم بالعدل ، ثم أمر الرعية بطاعة أولي الأمر مالم يأمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ومن هم أولو الأمر الذين تجب طاعتهم ؟

قال الرازي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « حق على الامام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة » فاذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا . وقد روى الطبري بسند صحيح عن أبي هريرة : ان أولي الأمر هم الأمراء . واحتج الشافعي رحمه الله لهذا القول بأن قريشاً ومن يليها من العرب ، كانوا لا يعرفون الامارة ولا ينقادون الى أمير ، فأمروا بالطاعة لمن ولي الأمر ، فلا يخرجوا عليهم ، ولا يمتنعوا عليهم لئلا تفترق الكلمة . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم **« من أطاع أميري فقد أطاعني »** اخرجه البخاري ومسلم وقال الزمخشري المراد بأولي الأمر منكم أمراء الحق ، لأن أمراء الجور ، الله ورسوله بريئان منهم فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة . وانما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في ايثاء العدل واختيار الحق والأمر بهما والنهي عن أضدادهما ، كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان . وكان الخلفاء يقولون : أطيعوني ما عدلت فيكم ، فان خالفت فلا طاعة لي عليكم . وفي الصحيحين عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما الطاعة في المعروف » . وروى

الامام أحمد عن عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**لا طاعة في معصية**» .

كل ما سبق يتناول تبعة الرعاة وواجب الولاة ، ولم نسق الحديث لهذا فحسب ، ذلك أن هذه المسؤولية الكبرى لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها قرنان ، ولكن مكان الخلاف هو واجب الأفراد في حمل التبعة والمشاركة في تقدم الأمة وتخلفها .

ومن المؤسف أن أغلب الأمة تعتقد بأنه ليس على الافراد تبعة ، حتى الذين يعتبرون في قمة الثقافة وذروة التوجيه ، وقد يكون فيهم الأدباء والكتاب والمفكرون والمربون .

أفحق أن هؤلاء وأمثالهم لا يجب أن يحملوا تبعة ، ولا يسوغ أن يوجه اليهم لوم ؟ أحق أن أمثال هؤلاء ليس لهم أي دخل ؟

يقول المؤرخون : إن الثورة الفرنسية انما صنعها ومهد لها أقلام الكتاب من أمثال موتسكيو وفولتير وجان جاك روسو ...

والصحف ووسائل الأعلام والدعاة ، كل هؤلاء مسؤولون في البلاد الاسلامية عن توعية الشعوب توعية صحيحة ، وايقاظ وجدانها وايقافها على الأخطار التي تحدق بها ، وهذه الوسائل اليوم توجه الأمم ، وتلعب بالعقول ويسيطر عليها اليهود في كبريات دول العالم . ومن المؤسف أن ما يتناوله الكتاب في البلاد الاسلامية ، وما تذيعه دور الاذاعة ، لا يتناسب والنكبات التي تعانيها البلاد .

ولعل من الخير أن نأتي على طرف يسير من مكانة القيادة في الأمة وفي حياة الأمة ، وحسبنا ما قال تعالى :

« ان ابراهيم كان أمة »(١) .

قال ابن كثير قال مجاهد «أمة» أي أمة وحده ، فحياته حياة أمة وموته موت أمة . والأمة في الآية بمعنى الجماعة وقال صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل :

«يبعث أمة وحده لأنه لم يشرك في دينه غيره » .

وليس ينكر منكر مكانة القيادة في توجيه الأمة ، وليس يجحد أحد أن القيادة تستطيع أن تغير صفحة التاريخ ، والمثل الأعلى للقيادة محمد عليه صلوات الله ، فقد نقل الأمة العربية من جاهليتها الى حضارة لا تجارى ، ونقل العالم من جاهليته الى حضارة انسانية سامقة .

ومن أمثلة القيادة الرائعة ، قيادة صلاح الدين الذي طرد الصليبيين من بيت المقدس . ومن أمثلة القيادة الخالدة ، قيادة ابن تيمية عليه رحمة الله ولم يكن ذا سلطان ولا ملك ، ولقد تألب عليه أعداؤه وحساده ، ومات عليه رحمة الله في سجنه وخلف من بعده رجالا يناضلون عن الحق وينافحون في سبيل العقيدة والدين الخالص .

---

(١) سورة النحل ــ الآية ١٢٠ .

وليس يستطيع أن ينكر منكر أن جماعة من الجماعات مهما كان لونها لا تستطيع أن تسير دون توجيه القيـــادة • والقيادة الرشيدة هي التي تسخر جميع طاقاتها وكل قواها في سبيل حماية الجماعة ومنعتها وقوتها ، وتقاس كفاءة القيادة بمقدار نجاحها في تنظيم الجماعة وتجنيد كل فرد من أفرادها للاسهام في خدمــة أهداف الجماعة ، ولا يتم ذلك الا بمعرفة دقيقة بالأفراد ووزن صحيح لمواهبهم في الحياة والمجالات التي يستطيعون النجاح فيها ، واتصال حسن بهم ، وفهم عميق لنفوسهم منبعث عن روح اجتماعية قادرة على النفوذ والتأثير • وتتيجة ذلك كله توسيد الأمور الى أهلها والى خير من يقوم بها ، وحصيلة ذلك أن تسير الجماعة سيرا مطردا ، وقد رضي كل فرد بمكانه وعمله ، فبذل أحسن جهد وأعطى خير انتاج • وهكذا تقاس كفاءة القيادة بما تحدثه من تغيير في انتاج الجماعة ، ومفتاح عبقرية القيادة معرفتها بالرجال •

عزل عمر خالداً ، وولى مكانه أبا عبيدة ، فظل خالد يعمل تحت لواء أبي عبيدة وامرته وانتهز خالد فرصة ، ففتح قنسرين وكان فتحها احدى معجزاته الحربية • وكانت كلمة عمر التــي قرظه بها « أمَّر خالد نفسه رحم الله أبا بــكر كان أعــلم مني بالرجال » • انها كلمة خالدة سجلت عبقريات ثلاث : عبقريــة خالد ، وعبقرية أبي بكر ، وعبقرية عمر يجر أذياله وراء أبي بكر ويتابع خطواته •

وليس ينكر منكر ، أن القيادة تقدم للناس نماذج قوية وأمثلة رائعة يحتذيها الناس ويسيرون وراءهـا • ومن عـادة الانسان أنه يتعشق القوة ، ويرهب البطولة وتأخذ المعاني الرائعة بمجامع قلبه وتسري الى فؤاده ، فتوقظ مشاعره وتفتح وجدانه ، فتستبين له معاني الحق واضحة قوية ، فيسهل عليه اتباعها •

ولولا رسول الله عليه صلـوات الله ، لما كان أصحابـه الأقربون ، ولولا هؤلاء لما كان من بعدهم •

ولكن السؤال الأول الذي يجب أن يطرح هو ما يلي :

أكان القائد يعمل وحده ؟ وما سر نجاحه ؟ وما مدى تأثير التجاوب بينـه وبين إخوانه في نجاحه ؟ وبتعبير آخر : ما مدى تأثير بيئته عليه وعلى نجاحه ؟ وهل التأثير متبادل بين القائـد وأتباعه وبيئته (بمعنى أن القائد يؤثر ويتأثر فالتفاعل مشترك) ؟

أليس في التاريخ عبقريات قد أطفئت لأن البيئة لم تستطع أن تستجيب لها ؟ أليس هنالك قيادات تضيع لسبقها على زمنها سبقاً شاسعاً ؟ لِمَ لم يؤمن مع نوح بعد أن دعا قومه قرابة ألف عام الا قليل جدا ؟ الم يقيض الله للرسل أصحاباً وحواريين ؟ ألم يقيض الله لمحمد عليه صلوات الله أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً والزبير وطلحة وسعداً وسعيداً وأبا عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وخالداً والمهاجرين السابقين وأصحاب البيعة الكبرى وأصحاب بدر والأوس والخزرج ؟

قد يقال إن محمداً عليه الصلاة والسلام، قد نفخ في أصحابه روح البطولة . ذلك حق ، وحق أيضا أن استعدادهم كان يؤهلهم لذلك ، ولم يكن للوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة وهشام بن الحكم وعقبة بن أبي معيط وأكابر مجرميها الذين قتلوا في بدر ، وسحبوا الى القليب ، لم يكن لدى هؤلاء مثل ذلك الاستعداد .

إن الذين يلقون التبعة عن كواهلهم ، ويحملون القيادة التبعة كلها ، ينظرون الى القضية من طرف واحد ، ويحتجون بالدليل في أحد جوانبه وهم يشبهون بمن يقول إن الحب هو الذي ينبت الزرع ، فيحسب السامع أن الحب قادر على انبات الزرع وحده ، والحق أن ذلك محال إذ لا بد من تربة ، ولا بد للتربة من شروط ، فاذا لم تكن التربة جيدة ، كان النبات سقيماً عليلاً . وعلى هذا فشأن التربة ، ليس بأقل من شأن الحب الذي يلقى فيها ، وكذا الحال في الجماعة ليس شأنها بأقل من شأن القيادة في نجاح الأمة .

استطاع الاسلام أن يحقق الانسجام التام بين الجماعة والقيادة ، فالطاعة واجبة للقيادة ، وامتثال أمرها والسير في دائرتها والاخلاص لها ، كل ذلك فرض على الأفراد محتم عليهم المضي فيه ، ولكن **جانب الأفراد محترم أيضاً فليس عليهم إلا الطاعة في الحق** ، وهذه غاية العدل وأعلى درجات الانصاف ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وهذا يشمل كل المعاني السامية

والمثل الأخلاقية والعدالة التامة والتزام الجادة ، فاذا انحرفت القيادة أو حادت أو خالفت فلا طاعة ولا امتثال • الى جانب كل هذا واجب الأفراد ، النصح للقيادة وتبصيرها بالحق وتحذيرها من اتجاه يبعد عن هدى أو يؤدي الى ردى •

كل هذا مغزاه ومؤداه الى أن الأفراد في المجتمع الاسلامي ليسوا آلات ولا أدوات • ولكنهم جانب أساسي يعمل الى جانب القيادة بصدق واخلاص ونصح ، يراقب أعمال القيادة ويمحضها النصح ، فهو جانب واع يقظ ، ليست مسؤوليته وأعباؤه بأقل من مسؤولية القيادة وأعبائها ؛ وهذه قولة عمر **« لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نسمعها »** •

وكل هذا مؤداه الى خطأ الفكرة التي شاعت في المجتمعات الاسلامية تلك الفكرة التي أدت الى تقاعس الأفراد عن الاهتمام بشأن الأمة وزهدهم في التفكير فيما أصابها ، وإعراضهم عن التدخل في شؤونها التدخل البصير الواعي الحكيم •

وهي الفكرة التي يخشى خطرها ، وقد نشأت بعد الخلافة الراشدة في العصور التي بدأ فيها الانحراف عن معاني القرآن •

وقد غدت ــ بكل أسف ــ هذه الفكرة فكرة الجماهير في المجتمعات الاسلامية • وهي فكرة انسحابية انعزالية ، تنافي روح الاسلام وطبيعته ، تلك الروح التي ترمي إلى تنمية ذاتية الفرد ، ودفعها إلى أقصى درجات نمائها وقوتها في سبيل الخير والمعاني المثالية وصالح الجماعة •

وأدى ذلك الى أن أصبح أفراد المجتمع دون المستوى الذي يتطلبه الاسلام من وعي واتنباه ، ووجد الدخلاء ثغرة واسعة للدس والافساد وبث أحابيل المكر ونشر مصائد الكيد في جماعة غافلة نائمة .

إن الواقع المؤلم المرير أن الجماعات المعادية تجد مرتعاً خصباً في البلاد الاسلامية ، مرتعا ليس هنالك من يحميه فلا يكفها عن كيدها زاجر ، ولا يردعها رادع ولا يحول بينها وبين شرورها عيون يقظة أو عقول ساهرة ، ولكنها تتجمع كما تتجمع الجراثيم الفتاكة ، وتنتظم وتعمل ، وأفراد الأمة مشتتون موزعون غافلون ، ولو انتبهوا انتباهة واحدة لرأوا ما يشده العقول من مكر العدو وجرأته ومخططاته .

لقد غفلنا عن العدو ، ثم فتحنا أعيننا في يوم فإذا العدو جاثم على صدورنا متمكن من رقابنا... ان القيادة لاتستطيع أن ترعى كل صغيرة وكبيرة الا اذا كان كل فرد في رعيتها مجنداً واعياً متيقظاً ، يرى أنه على ثغرة يجب أن يحميها ، يرصد العدو ويرقب حركاته ، فاذا رآه اقترب أو حاول التسلل ، كانت صيحة الانذار وصرخة الخطر ، والنداء للضرب على يد العدو وسحقه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : **« من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة،طار على متنه يبتغي القتل أو الموت في مظانه»**.

أنت على ثغرة فلا يؤتين الاسلام من قبلك . هذه المعاني توحي بيقظة الأفراد في الجماعة الاسلامية ، وحرصهم على حماية الجماعة، وتوحي بفشل أولئك النائمين الغافلين وتخاذلهم . وان المرء ليتساءل : أيعتبر هؤلاء من أفراد الجماعة ؟

كل فرد له حق الحماية والرعاية ، وكل فرد مسؤول عن دائرته ومنطقته ، وبذلك يشارك الأفراد جميعا في بناء الجماعة وحمايتها وتوجيه دفتها .

فمن المسؤول إذن ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » : فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته ... فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .

ويؤكد هذا المعنى القرآن الكريم في تربيته وفي كل خطواته. وسنعرض لمعنيين من هذه المعاني العديدة المنبثة في كتاب الله . أولهما : ذلك الموقف في « أُحُد » الذي نودي فيه بأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد مات . والموقف الثاني اعتبار الجماعة الاسلامية كلها كتلة واحدة ، جسماً واحداً وبناء واحداً ، فاذا وقع

خلل في ناحيـــة من النواحي ، كانت الجماعة مسؤولة بأجمعها متكافلة متآزرة •

وقبل ذكر هذين المعنيين يجب أن نشير الى أن أصل الاسلام قائم على حمل مسؤولية واداء أمانة والقيام بواجب • ذلك أن الأصل الأول الذي يقوم عليه الاسلام ولا يخرج عنه حكم من أحكامه ولا فرع من فروعه ، ولا تخرج عنه حركة من حركات المؤمن ولا سكنة من سكناته ، هو توحيد الله جـــل شأنه في ألوهيته وفي ربوبيته وفي صفاته ؛ فهو وحده المستحق للعبادة ، وهو وحده الخالق الرازق مالك الملك ، بيده الأمر وهو وحده المتصرف القاهر ، وهو المستعان وحده والمستغاث به وحده •

ويتبع هذا كله أن يكون الانسان عبداً لله خاضعاً لأوامره ؛ محياه لله ومماته لله ونسكه لله ، ومثل هذا المؤمن في هذا المستوى ليس انسانا يعيش لطعامه وشرابه وملذاته ، ولكنه يعيش لربه وخالقه ، قد باع نفسه وقدم ماله لخالقه جل شأنه ، ومثل هذا يعيش لله ويجاهد في سبيله •

وليس هذا المؤمن من النوع الذي لا يحمل هماً لأمته ، ولا يعاني نصباً ولا وصباً في سبيل جماعته ، ولكنه النوع الذي يحمل رسالة ويؤدي أمانة ، تلك الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان•

المؤمن يحمل رسالة ويؤدي أمانة ، والذي يحمل رسالة يحمل بصيرة ويحمل ارادة ولا يكون آلة مشلولة •

المحاضرة الثالثة

بين التربية الحديثة والتربية الإسلامية

- ١ -

بين التربية القديمة والتربية الحديثة

ثلة من الأصحاب كانوا يجتمعون كل صباح ، لدراسة شيء من كتاب الله وحفظ صفحة منه ، ولأحد هؤلاء الإخوان طفل لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، كان يسترق السمع إلى قراءتهم ، وإذا به بعد حين ينطلق لسانه فيعبر عما انطبع في حافظته من هذه الآيات انطباعاً تاماً شبيهاً بما يقع في قطعة من الصلصال إذا طبع عليها شيء من الكتابة ، أو هو شبيه بما تفعله الآلة اللاقطة الماهرة حين توجهها إلى مشهد استهواك . أُخذت بحافظة الصبي وتذكرت ولدي عبد الرحمن حين كان في الخامسة من عمره ، وكنت قد ألفت أن أقرأ مع طفل آخر أكبر منه سورة (طه) كل يوم . وكان الطفل الصغير يسترق السمع أيضاً ، فيفجؤنا في يوم من الأيام وهو ينهمر بالآيات التي نقرؤها ، وقد حفظها عن ظهر قلبه فأقف مشدوهاً . سرعة تلقي الطفل وسرعة انطباع ما يلقى إليه في حافظته أمر لفت نظري ، وهو الموضوع الذي تركز فيه اهتمام التربية القديمة . أخذ الأقدمون بهذا الاستعداد الكبير الموجود لدى الطفل للحفظ والأخذ والتلقي ، فشبه الطفل عندهم بلوحة فارغة تستطيع أيها

المربي أن تطبع فيها ماشئت بأسرع وقت ، كما شبه بقطعة من الصلصال مرنة تستطيع أن تصوغها بالشكل الذي تريده ، وتصبها في القالب الذي تريده مادامت لينة غضة الأطراف .

أهذا المعنى صحيح أم خطأ ؟ ليس من شك أنه صحيح ولكنه هو المكان الذي يتنازع فيه دعاة التربية الحديثة وأنصار التربية القديمة .

يحسب أنصار التربية القديمة أن أتباع التربية الحديثة ينكرون هذه الحقيقة ويجحدونها فيهملونها ، والواقع أنها حقيقة لا يمكن جحدها ، ولا تستطيع التربية الحديثة جحدها . ولكن التربية الحديثة تذهب إلى التركيز على الاهتمام بالطفل وإثارة شوقه ورغبته ، وليس هذا مما تجهله التربية القديمة ، ذلك أن كل من سبق من المربين ، يجعل همه الأكبر العناية بالطفل ، ويبذل وسعه لإثارة اهتمام الطفل واستثارة رغبته . وهنا نجد النوعين من التربية يلتقيان ، فما هو الفارق الأساسي بينهما .

تعترف التربية الحديثة بسرعة انطباع الطفل ولا تنكر ذلك ، وهي بهذا تجاري التربية القديمة .وتعترف التربية القديمة بضرورة الاهتمام والتأكيد على إستثارة شوق الطفل ورغبته وهي بذلك تشارك التربية الحديثة . وعلى هذا فالتربيتان تلتقيان فأين تفترقان إذن ؟ للإجابة عن هذا السؤال ، ربما كان يحسن ضرب المثال التالي :

نملة تسير في طريقها إلى غايتها فيعترض سبيلها حاجز يضعه طفل صغير. إن هذا الحاجز مشكلة جديدة تتحدى النملة وتحاول أن تصرفها عن غرضها ، فهل تنصرف النملة ؟ الجواب : لا أبداً . ولكنها في تلك اللحظة تبذل من طاقاتها مالم تكن تبذل من قبل ، وتأخذ بالبحث عن السبب التي توصلها إلى غايتها ، بسلوك أنواع من المحاولات وارتياد أنواع من السبل ، حتى ينتهي بها الأمر إلى الظفر . هذا المثال يدل على أن الكائن الحيّ حتى الحيوان له طبيعة تتلخص بأنه يبذل كل جهده ويستنصر كل طاقاته حينما تقوم أمامه مشكلة تصرفه عن غايته .

مثال آخر يمكن أن يكون قد مرّ به كل واحد منا : ناقشت زميلي في مسألة من المسائل فذهب مذهباً وذهبت مذهباً آخر ، وطالت المناقشة ، ورجعت إلى منزلي ، وإذا بي أكب على المصادر ألتهمها التهاماً ، وأبحث عن المراجع التي تمدني بمعلومات صحيحة كافية لإتمام المناقشة وتأييد ما ذهبت إليه من رأي ، أو لأصل إلى الحقيقة . إن إقبالي على الكتاب في هذه الحال لا يشبه إقبالي عليه وأنا أطالع هذا الكتاب من غير أن يكون هنالك دافع وهو التهيؤ للمناقشة . وقد يكون الدافع إلى البحث داخلياً ، كالبحث في مرض أصاب إنساناً . كثير من المثقفين الذين يصابون ببعض الأمراض كالسل مثلاً أو السرطان أو ما إلى ذلك ... يدرسون المرض من كتب الطب ويتتبعون مراحله، حتى يصبح أحدهم نصف طبيب في الموضوع .

حينما يكون لديّ دافع، وهذا الدافع منبعث من حاجة أجد نشاطي متوفراً ، وأجد أن طاقات كانت كامنة هامدة ، قد ظهرت إلى الميدان •• سرت مرة في شوارع مصر أريـد الوصول إلى منزل أحد أساتذتي ، وكنت أحسب أني أعرف الطريق إليه وأحفظها فكنت أسير سيراً معتاداً ، ولكنني بعد قليل تبين لي أني أخطأت السبيل إلى المنزل• في تلك اللحظة التي شعرت أني أخطأت السبيل وجدتني أمام مشكلة صغيرة تتحدى عقلي وذاكرتي وتتحداني كلي• بدأت بنشاط لا يشبه نشاطي حينما كنت أظن السبيل معروفة ميسرة ، وبذلت جهداً كبيراً في إعادة الذكريات وإعادة الصور حتى انتهيت إلى الغرض •

ولو كنت أسير في غابة للنزهة ثم تبين لي فجأة بأني قد ضللت الطريق، لشعرت في الحال بتغير فجائي في نفسي ، ويقظة في تفكيري واتنباه دقيق ، ودراسة للموقف ومحاولة لحل المشكلة •

قد نستنتج من الأمثلة السابقة كلها ، بأن هذا الإنسان لديه طاقات ، ولديه استعدادات مخزونة كامنة لا تخرج جميعها إلى العمل إلا حينما يتحدى هذا الإنسان مشكلة تغير مجراه العادي وتسلك به سبيلاً غير السبيل المألوفة• إن المشكلة الجديدة تتحدى هذا الإنسان ، وكأن هذا الإنسان حين يطرأ الطارىء الجديد ، يدعو جنوده كلها سواء كانت نفسية أو جسمية لتستيقظ وتدخل المعركة ، وقد كان بعض هذه الجنود أو كلها نائماً أو شبه نائم ،

فلما جاءت المشكلة استيقظ الجميع واستعد لدخول المعركة • إن التجارب تحدثنا بأن وجود المشكلة وتحديها تخلق لدى الفرد قوة ما كان يعهدها من قبل •

إن المشكلة قد جعلت الكائن الحيّ في حالة انفعال ، من طبيعته أن يمد هذا الإنسان بقوى كانت كامنة • وغني عن البيان أن هذا الانفعال في حالة التحدي لا بد وأن يكون انفعالاً معتدلاً ، فإذا زاد الانفعال عن الحد وذلك حينما تكون المشكلة أكبر بكثير من طاقة الإنسان ، فإن الأمر يؤدي إلى شلّ قوى الإنسان لا إلى إطلاقها • أما في حالة المشكلة التي تتحدى ، وهي قريبة من طاقة الإنسان فإنه يأتي هنالك بما ذكرنا من أعاجيب •

إن فكرة التحدي هذه تخلق من الفرد إنساناً آخر خلاقاً مبدعاً ، وإن الفكرة لصحيحة بالنسبة للأمم ، فهنالك أمم تتحداها المشكلات ، وتتوالى عليها الصعوبات فتستجيب للتحدي ، وتقف موقف الصراع ، وتكون تلك النقطة نقطة انطلاق فعالية الأمة ، وتكون أيضاً نقطة انطلاق نهضتها • هكذا يفسر (توينبي) المؤرخ الانكليزي العالمي تاريخ الأمم •

فإذا عدنا إلى موضوعنا الأول،مقارنة التربية الحديثة بالتربية القديمة ، لوجدنا أننا نضع يدنا على النقطة الهامة التي تفارق فيها التربية الحديثة التربية القديمة : إنها إثارة الاهتمام لدى الطفل ، ولكن إثارة الاهتمام هذه تختلف في التربية القديمة عنها في التربية

الحديثة. إن التربية الحديثة تعترف بأن الطفل آخذ متلقٍ ، ولكنها في الحين نفســه تؤكد أنه كائن حيّ نشط فعّال ، والحياة أهم سماتها قدرة الكائن الحي على تلبية دواعي بيئته . فالحياة تنطوي على هذه التلبية ، أي على النشاط والفاعلية . وهكذا كان الطفل كائناً حياً فاعلاً ناشطاً ، وهذان المعنيان يتقابلان : أولهما يجعل الطفل كالوعاء يجب ملؤه . وثانيهما يجعل الطفل هو الذي يمارس العمل ، وهو الذي ينشط للعمل . ولقد ذكرنا أن التربية القديمة تعنى باهتمام الطفل ، ولكنها تعنى به في سبيل الأخذ ، وفي سبيل التلقي، ثم إنها تحاول استثارة اهتمامه بدافع خارجي لا داخلي ، فهي تريد منه أن يهتم ولكن اهتمامه منصب على أخذ المعلومات ودراسة الكتب والتلقي،واستثارة هذا الاهتمام تتم بدافع خارجي وهو الجوائز والحصول على الدرجات العالية ، فإذا انقطع الدافع الخارجي ، انقطع الاهتمام ، لأن الصلة التي تربط الاهتمام بدافعه ليست صلة وثيقة . أما التربية الحديثة فتحاول أن تجعل الاهتمام في العمل نفسه والدافع إليه دافعاً غريزياً فطرياً،وبذلك يعتاد الطفل على أن يجد اللذة بالعمل نفسه ، والبون شاسع بين هذا وذاك . ذاك لا يحب العمل ولكنه يحب الجائزة والعمل ثقيل عليه ، ولكنه يهون ثقله على نفسه بتصور الجائزة وتصور النتائج التي تترتب على نجاحه . والثاني كما قال (كلا باريد) لا يترك ليعمل ما يحب، ولكن الأسباب تهيأ له ليحب ما يعمل .

التربية الحديثة بتعبير موجز تحاول أن تكون لدى الإنسان حب العمل للعمل نفسه ، والتربية القديمة تحتال لا يجاد الدوافع لحب العمل ، لا لذاته بل لثمراته ونتائجه . وقد أطلعتنا التجارب بأن هذه الثمرات وهذه النتائج حين تنقطع ، ينقطع التعلق بالعمل.

هذه النقطة هي نقطة تحول بين التربية الحديثة والتربية القديمة . غرض التربية القديمة : المعلومات ، وغرض التربية الحديثة: تكوين الطفل تكويناً قوياً صحيحاً،وتدريبه على ممارسة المشكلات ومحاولة التغلب عليها ، وتدريب الطفل على مواجهتها وحلها ، وسيجد الطفل أمام مشكلة من المشكلات أنه بحاجة إلى العلم . في هذه التربية يوضع الطفل أمام المشكلة فيلجأ إلى العلم فيجد العلم قد حل له مشكلته ، وفي التربية القديمة لا يوضع أمام مشكلة ولكنه يوضع أمام العلم ذهاباً إلى أن العلم يحل المشكلات. ولكن الفرق كبير بين الحالين : حال طفل قد استعمل العلم في حل المشكلة ، وحال طفل قد حفظ العلم فحسب . في الحالة الأولى يشعر الطفل شعوراً واضحاً بقيمة العلم وفائدته ، وحله للمشكلة فيقدر العلم ، وكل هذا يؤدي إلى تفاعل ما تفعله مع نفسه ؛ بمعنى أن الفكرة ترسخ وتثبت ويؤمن بها ، وتصبح جزءاً من نفسه ، ثم إنه يحسن تطبيقها في مناسبة أخرى عندما تعترضه مشكلة أخرى وكل هذا مفقود في الطريقة الثانية .

إن لفظة «مشكلة» من ميزات المدارس الحديثة، ولقد استعملها المربي (كلاباريد) للدلالة على ما يجب أن نواجه به عقل التلميذ في كل درس ، لأن المشكلة هي المحرك للنشاط العقلي ، فالدرس الذي يتكون من عرض الحقائق قد يملأ الذاكرة إذا اتخذت الحيطة لحسن استقبال هذه الحقائق . أما التفكير الفعلي فإنه يثار في العقل من طريق يخالف ذلك تماماً ، وهو طريق التوجه إلى الميول الحية في الطفل، ومعنى هذا أن نظام المدرسة الحديثة، لا يمكن أن يكون نظام الجمود والصمت الذي يطالب به جمع من المستقبلين ، بل هو نظام المعمل ، ونظام المعمل يبيح بل قد يتطلب شيئاً من الحركة وتبادل المعلومات .

والمؤسف جداً أننا في معاهدنا وجامعاتنا لا نعرف إلا طريقة الجمع والتلقي دون أي تفكير بتطبيق ما جمعناه تطبيقاً عملياً ولا يعرف طلابنا إلا الصفحات المعدودة من المذكرات التي يقدمها إليهم مدرسوهم ، أما اختبار هذه المعلومات ومتعة البحث فهو شيء منعدم في معاهدنا .

إن خطة السير في الدرس في الطريقة القديمة تقوم على الخطوات التالية : أولاً التمهيد ، وثانياً العرض ، وثالثاً الربط ، ورابعاً التعميم ، خامساً التطبيق . وهذه الخطوات هي خطوات الذاكرة ، فالذاكرة تحتاج إلى تمهيد وإلى عرض وربط . أما خطوات التربية الحديثة فهي الخطوات التي وضعها « جون ديوي »

في دراسته للتفكير • أولهـــا : تحديد المشـكلة ، وثانيها : دراسة المسائل والطرق التي تؤدي إلى حل المشـكلة ، وثالثها : تطبيق هذه الوسائل ، ورابعها : دراسة قيمة النتائج التي انتهت إليها المشـكلة •

وكل مرحلة من هذه المراحل ،تحتاج إلى براعة ليست يسيرة، فتحديد المشـكلة معناها : معرفة نشأتها والعوامل التي أدت إليها ، وذلك يساعد على دراسة السبل والوسائل التي يمكن بها مواجهة المشـكلة والتغلب عليها ، ثم تأتي مرحلة التنفيذ ، وهي الغرض من الدراسة كلها • وكم من مخطط أهمل لأن صاحبه لم يعتد الصبر على التنفيذ،وهنالك رجال يقدرون على التخطيط فإذا جاء التنفيذ، كانوا عاجزين عنه،فهم موهوبون في ميدان الفكر عاجزون في ميدان العمل ، وذوو الإرادات القوية هم الذين ينفذون ما يفكرون به • وقد يحسن مدرس وضع خطـــة درس ولكن يخفق في تنفيذها ، فالتنفيذ إذا أمر هام جداً • ومن المؤسف أن المجتمعات الإسلامية عرفت بأنها تخطط ولا تنفذ ، وهي في مقابل ذلك تنفذ ولا تخطط، وكلاهما عشوائي •

وكل هذا الذي سبق : القدرة على التخطيط ثم البراعة في التنفيذ وأن لا يكون تنفيذ إلا على أساس التخطيط • كل ذلك له أهميته في حيـــاة الفرد وكل ذلك يحتاج إلى دربة كافيـــة •

والمرحلة الرابعة : هي مرحلة اختبار النتائج وتقويم هذه النتائج ، لمحاولة إصلاحها ، وهي أيضاً مرحلة هامة • وهكذا نرى التربية قد انتقلت من تدريب للذاكرة إلى تدريب للتفكير • ومما سبق يمكن أن ننتهي إلى أن التربية القديمة ، كان غرضها أن يكون لدى الطالب إطلاع واسع على موضوعات كثيرة ، وأن يكون قد حفظ من هذه الموضوعات علوماً شتى ، فهو معروف بغزارة علمه ، ووفرة المادة ، وسعة الإطلاع ، فإذا تكلم انهمر كالسيل في أي موضوع وضعته بين يديه ، والوسيلة لذلك تبسيط المعلومات بالنسبة للطالب ، وتصنيفها وحسن عرضها ، وإغراء الطالب بشتى المغريات ليقبل على الدراسة ويختزن في ذاكرته أكبر كمية ممكنة • أما التربية الحديثة فليس هذا همها ، ولكن همها أن تنمي عند الطالب ملكة مواجهة المشكلات وإلقاء الطالب بنفسه في خضمها ، والمغامرة في سبيل ايجاد سبل الحل لها ، والعمل على تنفيذ ذلك • إن الطالب الذي نشئ على التربية الحديثة ذو فكر مبتكر ، وعقل مخترع • وإن رجل التربية القديمة مخزن علم ، وهو شبيه بمن درس أنواع العمليات الحربية دون أن يدخل حرباً ، ومن قضى ردحاً طويلاً من عمره بين كتب العمليات الحربية ، أتراه حينما يدخل ميدان الحرب لأول مرة بذخائر من النظريات ، يستطيع النجاح كمن دخل مئات العمليات ؟ • إن التدريب على مواجهة المشكلات يحتاج إلى مهارة جديدة غير مهارة الحفظ ذلك أن حفظ المعلومات ، لا يعني أبداً استخدامها في مواطن الضرورة •

هذه هي النقطة التي تفرق بين الاتجاهين من التربية ، التربية القديمة تحسب المعلومات وحفظها كاف للنجاح في ميادين العمل، والتربية الحديثة تدرب الطفل منــذ نعومة أظفاره على العمل في الميدان وتخلق منه إنساناً همه مواجهة المشكلات في كل حين .

إن طريقــة التربية الأولى : الاستماع والتلقي والحفظ ، وطريقة التربية الثانية : العمل وايجاد الحلول والتفكير بها تفكيراً شخصياً لا حفظ الحلول.التربية القديمة : تعرض المشكلة وتعرض حلولها ، وتطلب إلى الطالب أن يحفظ ذلك كله ، المشكلة وحلولها، فهي تعوده الاتباع دائماً والإنصياع . والتربية الحديثة : تربيــة تخرج الفرد من حيز التبعية وتطلقه من أسر الانقياد ، وتطلب إليه أن يضع المشكلة هو بنفسه ، تسأله أي مشكلة شغلت باله ؟ وأي موضوع يتمنى أن يجد حلاً له . قد يكون الموضوع : « لم مات قريب له بعد أن أصابته حمى من الحميات ؟ » ، وقــد يكون الموضوع : « كيف دخل اليهود فلسطين » ، وقد يكون « رحلة في البلاد التي يعيش فيها والتعرف إلى مختلف بقاعها » . والطالب يضع المشكلة والطالب يبحث عن الوسائل التي تصل به إلى حلها .

ما وظيفة المدرس في هذه الحال ؟.

ليست وظيفة المدرس إلا توضيح الفكرة ومساعدة التفكير، وإحداث الاتزان في التفكير، وسد الفجوات وإحكام سير الفكر . فالمدرس ليس أكثر من زميل كبير سبقت له تجارب يساعد الطفل ويشد

أزره ؛ ويجب أن نلاحظ أن هذه التربية القائمـة على الحقائق النفسية المكتشفة حديثاً ليس من السهل تطبيقها ، ذلك أنها تحتاج إلى مدرسين مهرة عارفين بعلم نفس الطفل ، قادرين على حسن معالجته ، وليس يتوفر مثل هذا المدرس توفراً كافياً حتى في البلاد الأوربية التي قطعت شوطاً كبيراً في الحضارة • ففي بلد كانجلترا مثلاً ، ليس كل المدرسين مؤهلين تربوياً ، وليس كل المدرسين ممن تخرجوا من معاهد المعلمين ؛ ولذلك نجد عدداً يسيراً من المدارس في انكلترا يتبع التربية الحديثة اتباعاً كاملاً ، وتسمى هذه المدارس (مدارس النشاط) • والطفل فيها ليس له مناهج ، وليس هنالك ساعات منظمة للدراسة ، ولكن يلعب متى شاء ويختار من اللعب ما يشاء ، وينقلب إلى طلب الكتب متى شاء • إن هنالك وسائل تحبب إليه النظر في الكتب وتقليب الكتب والتأمل فيها ، أما جميع المدارس الأخرى، فهي مدارس شبيهة بالمدارس التي لدينا• للطفل ساعات معينة للدراسة ، ومناهج معينة،ولكن روح التربية الحديثة قد أدخلت في هذه المدارس • فالطفل يتعلم بدافع الحاجـة وعن طريق اللعب •

ان الطفل عندنا يقضي مدة طويلة بدراسة مالا يفهم له معنى• يكلف الطالب هنـاك بكتابة ما يسمونه « مذكرات » : يذكر في كراس خاص ما يحدث له كل يوم • إن هذه المدارس تكاد تطبق طرائق التربية الحديثة من غير مغالاة في اتباعها ، ومن الطرائق

الحديثة التي تساير التربية الحديثة ، طريقة المشروعات في أمريكا لصاحبها (كلباترك) ، وهو تلميذ (جون ديوي) • وهناك طريقة أخرى تعتبر معتدلة هي طريقــة (دالتون) لصاحبتها (هيلين باركهرست) • وقد سميت الطريقة باسم المقاطعة ، ولقد وجدت صاحبة الطريقة عن طريق المصادفة أن الدراسة التي يقوم بهـا الطلاب بأنفسهم تثبت في أذهانهم أكثر من الدروس التي كانت تلقيها عليهم وتجهد في إلقائها جهداً كبيراً • ولقد أيد تجربتها أحد المدرسين حين كان مضطراً في يوم من الأيام أن يكلف طلابه بمطالعة موضوع ويشتغل بأمر هام ، وتبين له من بعد أن هذا الموضوع الذي طالعــه الطلاب بأنفسهم ، رســخ في أذهانهم أكثر مــن كل الدروس الأخرى • طريقة (دالتون) طريقة منظمة يتفق فيها الطالب مع مدرسه أن ينجز في مدة معينة ــ في مدة شهر أو أسبوع ــ مطالعة فصل بنفسه يجيب فيه على أسئلة معينة ، وإجابته هذه تدل على فهمه للموضوع ويستعين بالمدرس متى شاء • وقد أحدثت أمريكا منذ سنوات ما يسمى (بالتعليم المبرمج) من غير معلم ، وفي هذه الطريقة يجد الطالب أسئلة ركبت في آلة تبدأ بالسهل وتأخذ بالتعقد ، يجيب الطالب ويضع الإجابة على الآلة • فإذا كانت الإجابة صحيحة استمرت الآلة في دورتها ، فإذا أخطأ في الإجابة توقفت الآلة ، فاضطر الطالب إلى تغيير المحاولة ، وإعادة الدراسة حتى يصل إلى الجواب الذي يضمن له سير الآلة •

إن هذا الجهد الشخصي شيء عظيم جداً في التربية ، إنه ينزع عن الإنسان ربقة الأسر والتبعية ويهبه الشعور بالحرية ، ويمنحه الثقة بالنفس ويشعره بالنجاح ، وليس شيء أعظم في حياة المرء من ثقته بنفسه وشعوره بنجاحه . هذه الطريقة تذهب عن نفس الطفل الوجل والخوف والتردد ، وتهبه الإقدام والمغامرة .

من المؤسف جداً أن الطرائق المتبعة في بلادنا ، ليست الحديثة تماماً ولا الطرائق القديمة التي ادخلت فيها روح التربية الحديثة . ذلك أن هذه الطرائق مبنية على أن يقوم المدرس بالشرح بشكل كامل ، ففيه التمهيد المحكم الذي يجعل الموضوع الجديد منبثقاً انبثاقاً تاماً عما كان يعرف الطفل . ثم يعرض فيه الموضوع ويعتمد في عرضه على مناقشة الطفل واستجوابه استجواباً صحيحاً دقيقاً يؤدي إلى حمل الطفل على استنباط القاعدة بنفسه ، أما الطرائق المتبعة لدينا فهي من هذا النوع ولكنها من غير تمهيد محكم ، وإذا كان هناك استجواب فهو استجواب خشن ليس فيه ذلك الفن الدقيق ، وقد يكون المدرس أحياناً وبكل أسف غير ملم بمادته . الطريقة الحديثة التي اتبعها الأوربيون،أوجدت لديهم علماء يكبون على البحث ويعكفون على الدرس . أصبح البحث هوى لهم ، يحبون البحث للبحث والتقصي لإرضاء نهمهم العلمي ، وهكذا يظل الباحث في بحثه أياماً يتتبع الموضوع إلى النهاية . وهكذا وجد من هؤلاء من يستخرج قوانين السلوك وقوانين الكون ويتوصل إلى تفتيت الذرة والسير في الفضاء .

التربية الحديثة والحرية الصحيحة وطلب الحقيقة :

ليس من شك في أن هــذه التربية قد أوجــدت باحثين وأوجدت علماء ، وكونت من شعوب الغرب رجالاً ينطلقون في سبيل العمل ، ينظرون إلى الحياة نظرة جدية أكثر مما ننظر إليها ويثقون في أنفسهم أكثر مما نثق ، ويصدقون في معاملاتهم أكثر ممـا نصدق ، ولكن السؤال الهـام الذي يردهنـا : هل كونت هذه التربية من هؤلاء رجالاً أحراراً تمام الحرية ؟ هل كونت من هؤلاء رجالاً يطلبــون الحقيقة اينما كــانت ؟ هل كونت من هؤلاء رجالاً يبغون العدالة مهما أدت إلى تنائج ؟ للإجابة عن هذه الأسئلة نذكر الأمثلة الواقعية التالية : ظل هؤلاء الغربيون ردحاً طويلاً من الزمن تحت سلطان الكنيسة وتحت سيطرة الكنيسة ، ثم تحللوا من هذا السلطان وخرجوا مــن قبضته ، وكان ذلك كما يعترف به كثير من كتابهم بسبب احتكاكهم بالثقافات الإسلامية والحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس غرباً ، وفي أثناء الحروب الصليبية في بلاد المسلمين شرقاً • خرج هؤلاء عن سلطة الكنيسة ، وكان للكنسية وصاية واسعة كبيرة تتحكم في العقول ، وكانت توجه الناس ، وكانت تتحكم فيما يقرأ الناس وفيما ينشر للناس ، ثم جاء عصر النهضة ، وخرج الناس من سلطان

الكنيسة • ولكن أمرين اثنين لم يتغيرا لدى كثير من الناس في تلك البلاد ، أولهما يتصل بشأن الأديان الأخرى والدين الإسلامي خاصة ، ذلك أن الدين الإسلامي يرون فيه أكبر منافس للديانة النصرانيه • والأمر الثاني يتصل بسياسة هؤلاء وخاصة خارج بلادهم •

كنت في القطار مرة وكان إلى جانبي شاب من شمال البلاد الانكليزية ، تحدثت إليه وعلم أنني من بلاد العرب فقال : أنتم محمديون أليس كذلك ؟ والفكرة القائمة في أذهانهم أننا نتخذ من محمد وثناً ، وكأن الرجل رأى في مظهري مالايتفق وذلك ، فأراد أن يعرف الحقيقة ، قلت له : إننا موحدون وإننا نعبد إلها واحداً ، إله السماء والأرض • فقال : ألا تعبدون محمداً ؟ فقلت : ألم تقرأ ماكتب أحد كتابكم عن محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وسميت له الكتاب ، وقلت له : لقد ذكر هذا الكاتب فيما ذكر بأن محمداً كان أبرع من الأنبياء الذين سبقوه ، وكان قد فطن إلى ما وقع به أتباع الأنبياء السابقين من المغالاة في تقديس أنبيائهم وتعظيمهم حتى وصلوا بهم إلى درجة الألوهية •

فضرب محمد صلى الله عليه وسلم أمثلة كثيرة لأصحابه ، يحذرهم ويقر في نفوسهم بأنه بشر مثلهم•عجب الرجل الانكليزي لما أقول ، ولكني لم أجد لديه أي أهتمام في أن يغير مالديه من فكرة خاصة بشأن العرب والمسلمين •

وتحدثت مرة إلى مدرس انكليزي وانتقل بنا الحديث إلى صلة الأمة الانكليزية بالحكومات العربيـــة ، فقلت له : لقـــد أسأتم إلينا إساءات بالغة ، وكان من أكبر الإساءات إنشاء دولة صهيونية معادية تمدها أمريكا وانكلترا وهي ذات مطامع كبيرة في قلب البلاد العربية . عجب الرجل لما أقول وأخذته الحماسة فقال : أصدقك الحديث ؟ قلت : نعم ، قال : إن صحفنا يهودية ، وإذاعتنا بيـــد اليهود ، وإن رؤوس الأموال لدينـــا على الغالب يهودية ... وهكذا أراد الرجل أن يشير إلى الدعاية اليهودية وإلى سلطان اليهودية في البلاد الانكليزية .

مثال آخر أريد أن أستنتج منه وقوع هؤلاء القدم تحت تأثير سلطان الدعاية : شهدت حينما كنت في البلاد الانكليزية مناقشة عرضت على شاشة التلفزيون بين أستاذة للفلسفـــة في الجامعة ، ورجل من رجال الدين النصراني برتبة دينية عالية وهو من الذين عرفوا بثقافة واسعة . قالت المدرسة مخاطبة رجـــل الدين : ماذا تقول عن التربية الروسية ؟ فقال : إنها تربية تقتل الإنسانية وتطمس نور الحرية ، إنما لا تسمح للفرد بأن يبحث عن الحقيقة وأن يرى الحقيقة ، إنهم يسلكون جميع الوسائل غير الشريفة ليحملوا أطفالهم على أن ينشؤوا وهم يحملون عقيدة الشيوعية فيكفرون بكل عقيدة أخرى . ولاحت على وجـــه المدرسة معاني الغلبة فابتدرت رجل الدين قائلة : تعذرني إذا

قلت إن سبيلكم ـ وهي تعني رجـال الكنيسة ـ لاتختلف اختلافاً كبيراً عن الطريقة التي يسلكها الشيوعيون في تربيـة أطفالهم • إنكم تحقنون الأطفال بمعاني الكاثوليكية ولا تسمحون لهم بالبحث عن الحقيقة والوصول إلى الحقيقة • ودافع الرجل ولكن حديث المدرسة ظل مستعلياً وكانت حججها بينة نيرة لكل من استمع الحديث •

أريد أن أخلص مما سبق أن هؤلاء الذين يتبجحون بأنهم أدركوا عصر النور وعصر العلم ، وأنهم دعـاة العلم والنور ، إنما هم فرائس لأنواع الدعايات التي يقوم بها جماعات منظمة في بلادهم • لقد ذكر أحد الكتاب من هؤلاء أن وثنية هـذا العصر هي عبادة الحكومات ، فالشاب الذي ينشـأ في انكلترا لا يعرف الحق إلا الذي تعرفه بلاده ، ولا يعرف العدالة إلا كما يصورها ساسة بلاده ، والذي ينشأ في أمريكا شأنه كذلك •

إن هنالك في العالم معسكرين اثنين ، المعسكر الشرقي الشيوعي والمعسكر الغربي الديمقراطي ، ولعله يفيدنا فائدة كبيرة أن نقرأ ماكتب كاتب انكليزي بشأن الدعاية في حكومات العالم الحديثة • يقول الدكتور (براون) في كتابه « وسائل الإقناع » :
« حين يتبين المواطن بالتدريج مدى ما يخضع له خضوعاً ظاهراً مكشوفاً ، أو بوساطة وسائل مستعملة من قوى تؤثر عليه وتحاول توجيه عقله وتضغط عليه ، يمارسها أولئك الذين بيدهم القوة في

المجتمع الجماهيري ، حين يتبين الفرد ذلك يشعر بوضوح بأنه قد فقد كل حيلة ، وأنه واقع تحت رحمة الفئة التي بيدها المال والقوة والتي تحاول السيطرة على حالاته النفسية والاستمرار في هذه السيطرة ومضاعفتها على مر الزمن » •

ونشرت مجلة الأسبوع العربي في عددها (٣٦٩) الاثنين ٤ تموز ١٩٦٦ تحت عنوان (نيويورك تل أبيب الأطلنطي) :

ملوك الذهب والفولاذ الكبار :

اليوم يسيطر اليهود على أهم المرافق الصناعية والتجارية ، فيملكون ٩٠٪ من صناعة الفولاذ وحديد القراضة ، و ٩٠٪ من صناعة الفراء ، و ٤٠٪ من صناعة الأحذية ، و ٥٠٪ من الكباريهات ، ومخازن نيويورك للأزياء والألبسة ويشكلون ٤٠٪ من مستخدمي صناعة السينما ، بالإضافة إلى ثلاث شركات إذاعة وتلفزة ، وجريدة (النيويورك تايمز) ••• ومنذ هذا التاريخ (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥) بدأ تأثير الصهيونيين واضحاً في السياسة الداخلية للولايات المتحدة ، وبدأ الحزبان الأمريكيان يتنازعان لكسب أصوات اليهود • وحينما جاء ترومان إلى الرئاسة ، كان استسلامه للصهيونيين تاماً ، بالإضافة إلى جهل ترومان بمسائل تتعلق بالتاريخ • وقد وصف (اتلي) رئيس وزراء بريطانيا مسلك ترومان بأنه كان دوماً مخالفاً لرأي مستشاريه ووزرائه • وفي ربيع عام ١٩٣٨ ، حينما بدأ بعض الوهن على حماس ترومان ،

عالجه الصهيونيون في انتخابات جرت في دائرة اكثريتها يهودية ، كانت ضمن نفوذ الديمقراطيين ، فمنحوا أصواتهم للمرشح الجمهوري وكان شعاره : (لنرسل جنوداً لتنفيذ التقسيم)وقد فاز هذا المرشح . ولعل أبلغ وصف لهذا الضغط ، ما رواه (فورستول) وزير الدفاع الأمريكي آنذاك من أن النشاطات الصهيونية وصلت إلى حد الفضحية . وقد أقدم هذا الوزير على الانتحار تخلصاً من الشائعات والمضايقات التي أثارها الصهيونيون حوله بسبب موقفه المضاد لهم .

غرض التربية الحديثةإنشاء أتباعاقوياء يتعصبون لحكوماتهم:

ولعله يتضح من كل ما سبق اتضاحاً تاماً أن التربية الحديثة تمد الفرد بكل ما تستطيع أن تمده وتنميه أكبر تنمية ممكنة ، وتحاول أن تستخرج كل ما لديه من خير ، وتنمي كل ما لديه من استعدادات . ولكن ذلك ليس في سبيله وحده بل في سبيل المجتمع الذي يعيش فيه . وهكذا يتربى الفرد في المجتمع الشيوعي وتنمى كل استعداداته لخدمة المجتمع الشيوعي . ويتربى الفرد في المجتمع الديمقراطي وتنمى كل استعداداته لخدمة المجتمع الديمقراطي . ويعتبر القرن العشرين عصر النور وعصر الحريات ، والذي يبدو أنه العصر الذي تستلب فيه الحريات طوعاً أو كرهاً ولم يسبقه في ذلك عصر آخر .

- ٢ -
الأغراض السليمة للتربية

١ ـ التنشئة الاجتماعية هي غرض التربية :

كانت الثروة المادية هي العمود الفقري الذي تسعى الدول لتدعيمه وتقويته ، غاضة النظر عن كل ما يضحى في سبيل ذلك ، وأصبح اليوم الأمر على العكس تماماً ، إذ أصبحت ثروة الأمم والشعوب لاتقاس أبداً بما تشتمل عليها أرضها من ذهب وفحم وحديد أو أرض خصبة ، بل أصبح المقياس هو مدى قدح الأمة لزناد التفكير لدى أبنائها ، وأصبح مفهوم الثروة البشرية أو الطاقة البشرية في كل مجتمع صاحب المكانة الأولى ، ونشأ عن هذا ، الاهتمام بمشكلة الأجيال القادمة ، وأخلصت المجتمعات العناية بها والحفاظ بها والحفاظ عليها ومنحها كل الفرص ، لتنمو أحسن نمو يمكن أن تنموه ويجني المجتمع من وراء ذلك أطيب ثمراتها .

٢ ـ التنشئة الاجتماعية هي سبيل التماسك الاجتماعي :

ثم إنه قد لوحظ أن تماسك المجتمع لايتم إلا عن طريق عملية تنشئة اجتماعيه خاصة ، وهذه التنشئة إنما تتم في عقول

الأفراد ونفوسهم ، فهي داخلة في الناحية البشرية ولها مكانتها وأهميتها في وحدة الأمة وتماسك المجتمع •

ويحدد العملية الاجتماعية أهداف المجتمع ، وإذا كنا نجد اختلافاً بين الأمم في عملية التنشئة الاجتماعية فمرد ذلك إلى أهداف كل المجتمع من المجتمعات ، وإلى طبيعة الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية التي يقوم عليها كل مجتمع •

فالتربية الغربية ترمي إلى الكشف عن مواهب أبنائها وتنمية هذه المواهب حتى تبلغ بها أقصى ما يمكن أن تبلغه ، ولكن ذلك في سبيل المبادىء التي سيطرت على المجتمع والمثل التي تتطلع إليها الأمة والأهداف التي ترمي إليها •••

٣ ــ وظيفة المدرسة :

تتلخص المشكلة التربوية بالبحث عن الوسائل الفعالة التي تتيح لكل فرد من أفراد الأمة ، أن ينال قسطه من التربية والتعليم إلى أطول مدة ، ليتيسر له الخروج إلى المجتمع مزوداً بالكفاءات الضرورية وذلك ليتم لــه غرضان أولهما النجــاح في عيشه ، والثاني التعاون مع إخوانه • فوظيفة المدرسة التأثير في سلوك الأفراد تأثيراً منظماً يرسمه المجتمع ممثلاً في السلطات التعليمية العليا ، وبذلك تقوم المدرسة بنقل الحضارة ونشر الثقافة وتوجيه الناشئة ، لتصل بهم إلى كسب العادات التي تساعدهم عــلى التكليف الصحيح في المجتمع والتقدم بهذا المجتمع •

المدرسة وظيفتها بكلمة موجزة ، الإشراف على عملية التنشئة الاجتماعية • وهذه التنشئة تتضمن التأثير في سلوك الأفراد التأثير الذي يريده المجتمع •

وتستعين المدرسة في سبيل ذلك بكل العلوم الإنسانية • ولعل من الخير أن نثبت هنا تقريراً قدمه الأستاذ أبو الحسن علي الندوي حول موضوع التربية والمدارس يقول : « حضرات أصحاب المعالي وزراء التربية في الدول العربية الموقرة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فأنتهز فرصة اجتماعكم في البلد العربي الكويت لدراسة القضايا التعليمية في الحكومات العربية ووضع مخططات لها ، فأقدم إليكم هذه الرسالة كمعني بموضوع التعليم في الأقطار الإسلامية والشرقية ، وكعضو متواضع في هذه الأسرة الكريمة ، التي تلتقي على صعيد الإسلام وعلى صعيد الاهتمام بشؤون العالم العربي وعلى موضوع التعليم ••

لقد أصبح من المقرر في كل بلد واع حريص على سلامته وشخصيته أن دور التربية ليست إلا جهازاً يغرس المعاني والأسس التي يؤمن بها هذا الشعب ، الأسس التي درجت عليها أجياله ، يعيش بها ويعيش فيها ، في التاريخ الماضي وفي العالم المعاصر • فمن أول واجبات نظام التعليم في الأمة الواعية أن تغرس هذه العقائد والحقائق في قلوب الناشئة ، وتغذى بها حتى يكون

ايمانها إيماناً علمياً موضوعياً صادقاً ، وحتى تتحمس في سبيل الدعوة إليها ، والمثابرة عليها ، وقد أصبح من المقرر عند أساطين التعليم الحديث في الغرب : أن كل شعب من شعوب العالم ، إنما يصوغ نظامه التعليمي وفق نظرية الحياة التي يؤمن بها • فيقول (سير برس) الذي كان يحتل المكانة الاولى بين رجال التربية في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

(لقد سلك الناس مسالك مختلفة للتعريف بالتربية ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً : أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها •

إن وظيفة المدرسة أن تمنح القوي الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام) •

إن جون ديوي الذي كان تأثيره في نظام التربية الأمريكي أكبر من تأثير كل رجل في هذا العصر ، يقول في كتابه (الديمقراطية والتربية) : (إن الأمة إنما تعيش بالتجديد ، وإن عملية التجديد تقوم على تعليم الصغار • إن هذه الأمة تكون من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها) •

ويقول البروفسور كلارك : (مهما قيل في تفسير التربية فمما لامحيص عنه أنها تعني الاحتفاظ بنظرية سبق الايمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة وتجاهد في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة) •

لذلك ليس من المعقول ولا من الجائز أن تستورد أمة لها شخصيتها ورسالتها ، ولها عقائدها ومناهج حياتها ، ولها طبيعتها ونفسيتها ، ولها تاريخها وماضيها ، ولها محيطها الخاص وظروفها الخاصة ، أن تستورد نظاماً تعليمياً من الخارج ، ولا أن تكل وظيفة التعليم والتربية وتنشئة الأجيال ، وصياغة العقول إلى أناس ــ مهما بلغوا من البراعة في التدريس ، وإتقان اللغات والفنون ــ لا يؤمنون بهذه الأسس والعقائد ، ولا يتحمسون لشرحها وتعضيدها • يقول الأستاذ الأمريكي الدكتور ج•ب• كونكن في كتابه التعليم والتربية : (إن عملية التعليم ليست عملية تعاط وبيع وشراء ، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أوتستورد إلى الداخل ، إننا في فترات من التاريخ خسرنا أكبر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانجليزية أوالأوربية إلىبلادنا الأمريكية)•

وعلى هذا الأساس يتفق المعسكران الشرقي والغربي ، وقد دلّ ما سبق من أقوال خبراء التعليم وقادة الفكر في أوربة وأمريكا على وجهة نظر هؤلاء إلى التربية ، وإنها ليست إلا أداة مؤثرة لترسيخ العقيدة ونظرة الأمة إلى الحياة والكون ، وتعميق

جذورها في قلـوب الناشئة ونفوسها ، ونقل التـراث العقلي والعقائدي والاجتماعي إلى الأجيال القادمة ، وإقناعها بضرورة الاحتفاظ بها والمثابرة عليها ، والجهاد في سبيلها • أما المعسكر الشرقي الذي اشتهر بالثورة على جميع الأسس والقيم ، ونقد القديم وبلبلة الأفكار ، فإنه شديد التمسك بهذه النظرية للتوفيق بين التربية والعقيدة التي يختارها والفلسفة التي آمن بهـا ، وإخضاع علم التربية لهـذا الغرض وصياغته في قالبـه صياغة دقيقة متقنة • يقول عالم من كبار علمـاء الطبيعة في البـلاد السوفييتية : (إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي يدرس في البلاد السوفييتية ، ولكنه قسم منفصل قائم بذاتـه يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف • إن سمة العلم السوفييتي الأساسية : أنه قائم عـلى فلسفة واضحة متميزة •• إن أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمهـا ماركس وأنجلـز وستالين) •

ومن المآسي التي تحير العقل وتجرح القلب أن تظل الأقطار الإسلامية وحدها في فوضى تعارض وغموض والتباس بـين الحقائق التي تؤمن بها ، وبين نظـام التربية الذي تطبقـة • ولا تفكر في التوفيق بين الايمان بهذه الحقائق وبين التربية التي تنفق عليها أكبر جزء من إمكانياتها ••• وكانت حرية أن تكون أبعد الناس عن تلك الخطة التي تعيش فيها متطفلة على مائـدة الأمم الأجنبية ، وكانت حرية أن تزيل جميع العقبات في سبيل الوئام والتعاون بين العلم والدين ••

إن المنقذ الوحيد للعالم من النهاية الأليمة التي ترتقبه هو وجود نظام للتربية يقوم على التوفيق بين العقيدة والثقافة ، بين قوة العاطفة والتهاب جذوة الايمان ، وبين العلم الواسع والفكر النير ، ومعرفة أحدث ما وصلت إليه الأجيال البشرية من تجربة واكتشاف .

وأقدم لكم العناصر التي تنافي هذه الغاية وترزأ هذه الأمة في شخصيتها :

١ ــ استيراد المناهج الدراسية والمواد التعليمية من الخارج .

٢ ــ استيراد الأساتذة والمعلمين من أوربا وأمريكا الذين أقل ما يقال فيهم أنهم لن يخلصوا في إنشاء الجيل الجديد على عقيدة الأمة .

٣ ــ الاهتمام الزائد باللغات الأجنبية وإعطاؤها أكثر من حقها ، فإنها تنمو على حساب اللغة العربية . إن تدريس عدة لغات في وقت ما قد أصبح موضع بحث عند خبراء التعليم خصوصاً في المراحل الابتدائية والمتوسطة .

٤ ــ وجود مدرسين لا يؤمنون بأهداف الأمة ونظرتها إلى الحياة . وكيف يصح أن يكون أمثال هؤلاء أساتذة مربون وقادة موجهين ، هذا شيء لا يقبله عقل ولا منطق » . (انتهت كلمة الأستاذ الندوي بتصرف) .

التوحيد مبدأ الفطرة

المبدأ الأول الذي دعت اليه التربية الاسلامية وأوضحه رسول الله هو عبادة الله وحده وهو صفة الفطرة وصبغة الخالق جل وعلا لنفوس عباده ، فلقد فطرهم علـى التوحيد وصبغهم بصبغة الايمان .

في صحيح مسلم قال رسول الله عليه صلوات الله يقول الله تعالى :

« اني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » . (اجتالتهم عن دينهم أي حولتهم عنه) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال عليه الصلاة والسلام: « ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء . (الجمعاء سالمة الأذن والجدعاء مقطوعتها) .

وقال الله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله[1] » .

---

(١) سورة الروم ــ الآية ٣٠ .

وقال الله تعالى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »[1] .

وقال الله تعالى : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين »[2] .

قال المفسرون :

مثّل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد واخراجهم من ظهور آبائهم شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب بحمله اياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم الى ذلك من غير تلعثم أصلا ، والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرار منهم والشهادة.

قال تقي الدين ابن تيمية :

ان الاقرار والاعتراف بالخالق فطري ضروري في نفوس الناس وان كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج الى نظر يحصل به المعرفة ، وهذا قول جمهور الناس وعليه حذاق النظار أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين » .

---

(١) سورة البقرة ــ الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الأعراف ــ الآية ١٧٢ .

يؤيد هذا وقائع لا تحد وحوادث لا تحصر تثبت جميعها أن في هذا الانسان ميلاً فطرياً الى الايمان بقدرة مغيبة تصرف الكون ، منها المبدأ واليها المعاد ، وتبدو هذه الفطرة جلية ساعة الشدائد القاصمة والنوازل المروعة . قال تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم الى البر إذا هم يشركون »[1].ذكرت صحيفة أمريكية حادثة وقعت لمظلي أمريكي ألقى بنفسه من الطائرة فاذا بالمظلة التي يحملها لا تفتح ، واذا به يهوي في الفضاء والموت المحتم يستقبله بأبشع صورة ، وفي تلك اللحظة وجد نفسه يستغيث استغاثة صادرة من أغوار قلبه بقدرة لا عهد له بها من قبل لا يعرف أنه ناداها أو ذكرها في ساعة من ساعات حياته ، ثم تكتب له الحياة وتفتح المظلة بعد ثوان ويحدّث الناس بلحظاته المروعة .

كتاب يجحدون هذه الفطرة :

غير أن بعض كتاب القرن الثامن عشر الذي مهدوا للثورة الفرنسية ذهبوا الى أن الديانات ليست الا منظمات مستحدثة . قال فولتير : « ان الانسانية لا بد أن تكون قد عاشت قرونا متطاولة في حياة مادية خالصة ، قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة ... قبل أن تفكر في مسائل الدينيات

---

(١) سورة العنكبوت ــ الآية ٦٥ .

والروحانيات ... » بل قال : « ان فكرة التأليه انما اخترعها دهاة ماكرون ، من الكهنة والقساوسة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء » .

Voltaire « Essai sur les moers » p. 14, p. 133

وكذلك كان نظر « جان جاك روسو » الى فكرة القانون .

وهذه الفكرة هي أيضا زعم السوفسطائية الأقدمين . ولقد أعان على بعث هذه الآراء وترويجها في أوربة الحديثة سببان: أولهما **الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة** ، والثاني **ظلم القوانين الوضعية ، وسوء توزيع الثروة العامة** ، فظن هؤلاء الكتاب أن ذلك شأن الدين والقانون في كل زمان ومكان .

ظهور خطأ هؤلاء الكتاب :

ولكن لم ينقض القرن الثامن عشر نفسه حتى ظهر خطأ هذه المزاعم حيث كثرت الرحلات الى خارج أوربة ، واكتشفت العقائد والأساطير المختلفة وتبين من مقارنتها أن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ؛ وظهر أنها أقدم في المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها كانت **تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس** .

على أنه لم تخل أمة من وجود غافلين غمرتهم تكاليف الحياة وأعباؤها فلم يجدوا من الفراغ ما يمكنهم من رفع رؤوسهم للنظر في الحقائق العليا ، كما أنه لم تخل أمة من مفكرين ساخرين

حسبوا الحياة لعباً ولهواً ، وهم في الغالب من المترفين الذين لم يلقوا من عبر الحياة ما يهز قلوبهم وعقولهم • كما أنه لا ينكر أن عقائد قد استحدثت وصنوفاً من العبادات قد اخترعت ، كل ذلك قد وقع ، ولكن فكرة التدين في جوهرها كانت مسايرة لوجود الانسان • يقول معجم «لاروس» للقرن العشرين : « ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها الى الحياة الحيوانية ••• وان الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة ، هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية » • ويقول أيضا « ان هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل الا في فترات الاسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدا من الأفراد » •

وكتب « بارتيلمي سانت هيلير » : « هـذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا : ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاءا ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدأا ؟ كيف ينتهيان؟ ما الحياة وما الموت ؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا هذه الدنيا ؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة ؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة ؟ ما علاقتنا بهذا الخلود ؟

هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع الا وضع لها حلولا جيدة أورديئة ، مقبولة أوسخيفة ، ثابتة أومتحولة•••»

ويقول « هنري برغسون » : « لقد وجدت ، وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد جماعة قط بغير ديانة » • (أنظر لاستيعاب البحث كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ، البحث الثالث في نزعة التدين وأصالتها في الفطرة) •

شيء من إعجاز هذا الكون :

ان السعة التي عرفها العلم اليوم عن السماء لم تكن تخطر على قلب بشر في العصر الذي نزل به القرآن • الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلومتر) أي أنه يقطع في الدقيقة (١١ مليوناً و ١٦٠ ألف ميل) وفي السنة الواحدة من سنيننا يقطع (ستة آلاف مليار ميل تقريبا) وهذه المسافة هي التي اصطلحوا على تسميتها السنة الضوئية ليعبروا بها عن أبعاد السماء الهائلة ، فمتى قيل لنا ان نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا أنه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل •

والقمر وهو أقرب الأجرام السماوية الى الأرض يصل نوره الينا في أقل من ثانيتين لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا• أما الشمس فيصل الينا نورها في ٨ دقائق لأن بعدها عن الأرض ١٢ مليون ميل تقريبا •

أما أقرب نجم الى الأرض فيبعد عنها أربع سنوات ضوئية ومعنى ذلك أنه يبعد عنا ٢٣ مليون ميل تقريبا •

وهنالك (النسر الطائر) الذي يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية و (النسر الواقع) الذي يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية و (النسر الرامح) الذي يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أي ٢٩٤ مليون ميل تقريبا •

ووراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجرتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه ما هو أبعد عنه في تقدير العلماء • ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا كله بقوله تعالى (والسماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون)[1] •

وقال تعالى : « وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون »[2] • (أنظر كتاب مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي ، وكتاب قصة الايمان للشيخ نديم الجسر) •

حجة الماديين :

يرى الماديون أن كل ما في هذا الكون انما تم عن طريق المصادفة ، وذلك أن ذراته قد تلاقت وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة (بطريق المصادفة) ، فكونت العناصر الأصيلة ثم تلاقت (العناصر) وتجمعت ، وتمازجت (بالمصادفة) على نسب صالحة

---

(١) سورة الذاريات ــ الآية ٤٧ •

(٢) سورة الزمر ــ الآية ٦٧ •

(بالمصادفة) ،وأجواء ملائمة (بالمضادفة) ،فكونت هذه التنوعات وخلقت الحياة من هذه المصادفات .

وقانون المصادفة يرى استحالة هذا وعدم امكانه ، ذلك أن قانون المصادفة يقول : **ان حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الامكانيات المتكافئة المتزاحمة .**

فكلما قل عدد الأشياء المتزاحمة ، ازداد حظ المصادفة من النجاح ، وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة ، فاذا كان التزاحم بين شيئين اثنين متكافئين ، يكون حظ المصادفة بنسبة (واحد ضد اثنين) ، واذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخربدون أقل تفاضل طبعا . والى هنا يكون الحظ في النجاح قريبا من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفاً ، ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل .

اذا وضعنا عشرة أرقام متسلسلة في كيس وطلبنا الى أعمى أن يسحب الرقم (١) منها فحظ المصادفة هنا واحد ضد عشرة فاذا كان المطلوب أن يسحب (١) ثم (٢) بالتتابع كان حظ المصادفة واحدا ضد ١٠×١٠ فاذا كان المطلوب أن يسحب ١،٢،٣ متتابعة دون خطأ كان حظ المصادفة ١٠×١٠×١٠ ، فاذا كان المطلوب أن يسحب مرة واحدة الأرقام العشرة متسلسلة كان حظ المصادفة ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠ = ١٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ويلاحظ أن سحب هذه الأرقام

بالتوالي عن طريق المصادفة يكاد يكون مستحيلا،ولكن لو أخبرك انسان بأن حروف مطبعة بكاملها كونت عند اختلاطها بالمصادفة كتاباً كاملاً من ٥٠٠ صفحة ينطوي على قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة متلائمة منسجمة بألفاظها وأوزانها وقوافيها ومعانيها فاستحالة ذلك أكبر بكثير من استحالة سحب الأرقام .

الاستحالة هنا بدهية والسبب يرتكز على قانون المصادفة ، فالتزاحم بين الأرقام العشرة جعل حظ المصادفة واحد الى عشرة آلاف مليون (عشرة مليارات) ولكن التزاحم بين حروف الكتاب يجري بين ٥٠٠ ألف حرف على تكوين ١٢٥ ألف كلمة بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبدا وهذا ما يجعل حظ المصادفة بنسبةواحد ضد عدد هائلجداً جداً،لو قلت عنه انه مليارمليارمليار لكان قليلا، ولكي ندرك ضخامة العدد نرجع الى الأرقام المتسلسلة فلو كانت (١٢) لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار ، ولو كانت ٢١ لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار مليار فكيف اذا كان التزاحم يجري بين ٥٠٠ ألف حرف بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى ؛ ولنتصور بعد هذا ما في الكون من ذرات وعناصر ونظم وقوانين ونواميس ونسب وروابط وعلائق وأقدار وأحجام وأوزان وحركات وسكنات وأوضاع واجناس وأصناف وأنواع ،وتتساءل هل يعقل أن يكون كل ذلك قد تم عن طريق المصادفة ، ان استحالة هذا بدهية .

المدنية المعادية للقرآن بنيت على نظريات لا تعرف طبيعة هذا الانسان :

ان نذرا في البلاد الغربية قد تبدت تصرخ بأهلها بأن مدنيتها المعادية للقرآن صائرة الى الزوال ، ذلك أنها مدنية بنيت على نظريات لا تعرف طبيعة هذا الانسان ولا تساير فطرته ، ولقد نادى بذلك كبار مفكري الغرب ومن هؤلاء العالم الطبيب الكبير « ألكسيس كارل » صاحب كتاب « الانسان ذلك المجهول » وهو يقول في الفصل الأول منه وعنوانه « الحاجة الى معرفة الانسان معرفة أفضل » يقول ما يلي :

« اننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرف على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء وقد ابتدعتها وسائلنا .. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح ، تسير في وسطها حقيقة مجهولة » .

يريد كارل أن يقول إنه ليس بوسعنا أن ندرس الانسان في وحدته المتكاملة ذلك أن وسائلنا أعجز من أن تحيط به كله ولذا فنحن لضعف وسائلنا نلجأ الى التقسيم والى دراسة الأجزاء وهذا التقسيم يباعد بيننا وبين الحقيقة ذلك أنه قد يكون في الوحدة الكاملة ما يفوت في دراسة الأجزاء . ولتقريب الموضوع نضرب المثل التالي : نملة تقف أمام جدار ارتفاعه ثلاثمائة متر لا تستطيع أن تدرك منه الا الجزء الصغير الذي يحيط بها، ويتأثر حكمها على

الجدار كله بهذا الادراك الجزئي وهو مخالف كل المخالفة للواقع وهو مخالف لادراك إنسان ينظر الى الجدار كله نظرة كلية شاملة ؛ والبون بين الانسان والكون أكبر بكثير من البون بين الجدار الشاهق والنملة الصغيرة .

ثم يقول كارل :

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، ذلك أن معظم الأسئلة التي يضعها أولئك الذين يدرسون الجنس تظل بلا جواب . إن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة ؛ اننا لا نعرف حتى الآن الاجابة عن أسئلة كثيرة من مثل ما يلي :

١ ـ كيف تتحد جزئيات المواد الكيميائية لكي تكـون المركب والأعضاء المؤلفة للخلية ؟

٢ ـ كيف تقرر (الجينات) حاملات الوراثة الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟» .

ويزيد كارل ما قاله بياناً بما يلي :

« الحوين المنوي هو الخلية التناسلية الذكرية ، والبويضة هي خلية الأنثى ، ونواة كل من هاتين الخليتين تتضمن أجساما تشبه الخيوط تسمى الكروموزومات وعددها في كل من الخليتين أربع وعشرون . فالخلية الملقحة تحتوي على ثمان وأربعين من هذه الكروموزومات نصفها مأخوذ من الأب والنصف الآخر من

الأم وهي توجد منتظمة في ٢٤ زوجا ، وبهذا يشترك الأبـوان مناصفة في نقل الصفات الوراثية •

تحمل هذه الكروموزومات الجينات (حاملات الوراثة) ــ وهي عبارة عن أكياس في منتهى الدقة تنتظم على الكروموزومات ويصعب رؤيتها تحت الميكروسكوب مهما كان قويا وعددهـا لا يحصى ــ الصفات الوراثية عن كل من الأب والأم ، وأي صفة موروثة لا بد أن تعود في أصلها الى واحد من هذه الحاملات أو مجموعة منها » •

يقول كارل « كيف تقرر هذه الجينات الموجودة نـواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟ لا يستطيع العلم أن يجيب كما لا يستطيع أن يجيب عن الأسئلة التالية :

١ ــ كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها ، مثل الأنسجة والأعضاء ؟ فهي كالنمل وتعرف مقدما الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ؛ وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط معقد في الوقت نفسه •

٢ ــ ما طبيعة تكويننا النفسي والفيزيولوجي ؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والشعور ؛ ولكن العلاقات الكائنة بين الشعور والمخ ما زالت لغزا •••

اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات تكاد تكون كاملة عـن فيزيولوجية الخلايا العصبية •••

٣ ــ الى أي مدى تؤثر الارادة في الجسم ؟

٤ ــ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء ؟

٥ ــ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التي يرثها كل فرد ، أن تتغير بوساطة طول الحياة والمواد الكيمائية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية ؟

اننا مازلنا بعيدين جداً عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والعضلات ووجود النشاط العقلي والروحي ... وما زلنا نجهل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ومقاومة التعب والكفاح ضد الأمراض .. اننا لا نعرف كيف يمكن أن يزداد الاحساس الأدبي وقوة الحكم والجرأة ... ولا ما الأهمية النسبية للنشاط العقلي والأدبي وكذلك النشاط الديني ؟ أي شكل من أشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور أو الخواطر ؟ لا شك مطلقا في أن عوامل فسيولوجية وعقلية معينة هي التي تقرر السعادة أو التعس، النجاح أو الفشل، ولكننا لا نعرف ما هذه العوامل .. اننا لا نستطيع أن نهب أي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة صناعية ، ولا نعرف حتى الآن أي البيئات أكثر صلاحية لانشاء الرجل المتمدن وتقدمه .. هل في الامكان كبت روح الكفاح والجهد ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟

كيف نستطيع أن نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدنية العصرية ؛ ٠٠٠٠ وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها ستظل جميعاً بلا جواب ٠٠ فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ما زال غير كاف ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب » ٠

(كتاب الانسان ذلك المجهول ص ١٣ ــ ١٤) ٠

انها أسئلة يسألها رجل وهب نفسه للعلم طيلة حياته ولا يجد لها جوابا ؛ وهو من العلماء المعدودين في العالم ٠ وهي تقرر بوضوح أن هذه المدنية الغربية التي بهرت العقول وأخذت بالأنفس ٠ مبلغ علمها بهذا الانسان جهل مطبق يصدق عليه قوله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »[1] ٠

جهل مطبق وفي الوقت نفسه دعوى عريضة مؤداها أن هذه المدنية كفيلة بانقاذ هذا الانسان ٠

جهلت هذه المدنية الانسان ثم وضعت له قواعد السير ونظمت له مبادىء الحياة ، وهنا التناقض العجيب والجهل المركب ؛ وان هذه القواعد والنظم التي وضعتها هذه المدنية قد شردت بهذا الانسان عن ربه وحملته على عبادة نفسه واتخاذ إلهه هواه وجعلت له آلهة من دون الله من المال والهوى ومن

---

(١) سورة الإسراء ــ الآية ٨٥ ٠

المادة والانتاج ومن الأرض والقوم والجنس ومـن المشرعين ، واتخذت المدنية الجديدة هؤلاء جميعاً آلهة عبدتها لتهرب من السجود لله وتستنكف عن عبادته .

يقول كارل في كتابه السابق ص ١٢٣ :

« ولاشك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذي تعانيه المدنية العصرية وهو دليل على أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقا الى تحسين صحتنا العقلية ..»

ثم يقول : « هناك أشكال معينة من الحياة العصرية تؤدي مباشرة الى الانحلال ، كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس الأبيض » .

تبدو هنا غيرة الكاتب على الجنس الأبيض واهتمامه به صارفا النظر عن الانسانية كلها .

ثم يقول : « إننا قوم تعسون لأننا ننحط خلقيا وعقليا .. ان الأمم والجماعات التي بلغت في الحضارة الانسانية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الأمم والجماعات الآخذة في الضعف والتي عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها ولكنها لا تدرك ذلك » .

لا مجال الى الاستكثار من هذه الشواهد ، وهنالك كثيرون

يتكلمون عن الهاوية التي وقفت المدنية الغربية على شفاها هذه المدنية التي خالفت فطرة الله وغيرت سنة الله •

والشيء الهام جداً أن هذه المدنية التي شنت الحرب على المبادىء الدينية أخذت ـ كما ذكرنا ـ تضع لهذا الانسان قواعد السير ونظم الحياة بانية ذلك على نظراتها المحدودة وآرائها القاصرة ؛ وفي هذا يقول كارل في الصفحة الثلاثين من كتابه السابق :

« ان نظم الحكومات التي أنشأها أصحاب المذاهب بعقولهم عديمة القيمة •• فمبادىء الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين تنطبق على الرجال الجامدين فحسب ، يجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة وأن علوم الاجتماع والاقتصاد علوم تخمينية افتراضية » •

وهكذا يقرر كارل أن هذه النظريات التي تعبث بحياة الأمم والتي تفرض على الناس فرضاً وأريق دماء الملايين من البشر في سبيل إكراه الناس عليها ليس لها نصيب من الحقيقة ، وأنها ما جاوزت أن تكون تخميناً وفرضاً •

ثمرة مبدأ الفطرة

١ ــ ليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويدعي الألوهية :

ثمرة مبدأ الإيمان أن يذعن صاحبه لخالق الكون وألا يرى لنفسه سيادة على هذا الكون ولا استعلاء حسب القوانين التي أبدعها مبدع الكون •

يقول بعض الوجوديين أن في عبادة الله والخضوع له والايمان بقدره حدّاً لحرية هذا الانسان ، وهم يريدون أن يكون هذا الانسان سيداً لنفسه رباً لهذا العالم ، ولذا يجب ألا تحد حريته بحدّ وألا تقيد بقيد ، ومن تقييد انطلاق هذا الانسان أن نجعله يؤمن أنه تابع لقدر محتوم •

أصحيح أن هذا الانسان حر في هذا الوجود ؟ أصحيح أنه يندفع بحريته فلا يقف في نشاطه وجهاده عند حد ؟ ان كان هذا الانسان حراً فهل يملك أمر وجوده ؟ وهل يملك الحيلولة بينه وبين هلاكه حين يحين أجله ؟ وهل يملك دفع ما يحيط به من مرض يسطو عليه أو جائحة تجتاحه ، أو مصيبة تنزل به ؟ هل يستطيع دفع ضر يصيبه ؟ لا يستطيع شيئا من ذلك ولا يملك من أمره شيئا في مبدئه ومعاده وحياته وتصرفاته • ولعل المثل التالي

يوضح شيئا من هذا : كان شاب ممتلئاً قوة وصحة ونشاطا يمشي في الأرض يحسب أنه يبلغ الجبال طولاً ، وكان يقول انه يتحدى المرض ، أي مرض يستطيع أن يصيبه ؟ ومرّ على ذلك الانسان المغرور أيام ابتلي بالسرطان فحطّمه تحطيماً وجعله أصغر من بعوض ..

هذه النظرية من صنع انسان جحد بربه وأنكر خالقه وخالف مكابرة وعنادا فطرة الله التي فطر الناس عليها . وبعد هذا أيهما خير للانسانية أن يشعر هذا الانسان أنه سيد وليس فوقه أحد ، أو أن يشعر بأنه عبد لخالق مدبر خلقه ليبتليه ، أيحيا في سبيل الخير والرحمة والانسانية أم يعيش لنفسه وشهواته وكبره وعناده ؟

واذا كان الانسان ليس سيدا في هذا الكون فليس لأحد من الناس **أن يدّعي فيه السيادة وليس لبشر أن يستعلي في الأرض ويطلب عبادة الناس له** .

وهذا المبدأ هو الذي جاء به الأنبياء جميعاً ، وبعثت الرسل من أجله ، وكانوا جميعا يدعون الناس ويقولون لهم **« اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »**(1) ولقد امتنع هؤلاء الناس وأبوا وفتن الأنبياء والذين آمنوا معهم وعذبوا .

ب ــ الغرض من دعوى الألوهية وعبادة الأوثان ، استعباد الانسان للانسان :

---

(1) سورة الأعراف ــ الآية ٥٩ .

لقد بين القرآن في مواضع كثيرة أن الكفار والمشركين الذين كانوا يجادلون الأنبياء ، كانوا يعترفون لله جل شأنه بخلق السماوات والأرض وبخلق أنفسهم ، ويعترفون لله بأنه هو الذي يدبر الأمر كله وهو الذي ينزل الغيث ويرسل الرياح بشرى بين يدي رحمته وبيده الشمس والقمر وبيده السماوات والأرض ومن فيهن ، كما قال الله عز وجل : **« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون !! قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تتقون !! قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ؟ » (١)** •

فليس الخلاف اذن في وجود الله جل شأنه وفي أنه خلق الخلق وبيده ملكوت كل شيء ، ولكن الخلاف فيمن يستحق العبادة وحده • ان الانسان من بين كل المخلوقات جميعها يقوم في وجه أخيه الانسان يدعي الألوهية إذ يدفعه الى ذلك حب التسلط وهوى الاستعلاء، يجعل نفسه إلهاً لغيره من أبناء جنسه يستعبدهم ويقهرهم على الانقياد والطاعة ويجعلهم أداة لهواه ، تسول له نفسه ذلك إذا ملك شيئاً من مال أو قوة أو رزق شيئاً من دهاء أو نبوغ •

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآيات ٨٥ ـ ٨٩ •

والذين ينتحلون الألوهية صنفان ، الصنف الأول : أولئك الذين يجدون في أنفسهم ما يحملهم على الاغترار بأنفسهم ، ويجدون من الوسائل ما يهيىء لهم دعوى الألوهية من غير استخفاء ولا مواربة • وفرعون مثل لهؤلاء إذ نادى بقومه « **أنا ربكم الأعلى** » (١) ؛ و « ما علمت لكم من إله غيري » (٢) ومن هؤلاء النمروذ الذي حاج ابراهيم وادعى أنه يحيي ويميت •

وهذه الألوهية التي ادعاها فرعون والنمروذ ، ليست بقاصرة عليهما بل هنالك في كل زمان ومكان من يدعيها • وبلاد فارس كانت تخاطب ملوكها بلفظ «خدا» ومعناها الاله ، وكذلك شأن البيوتات الحاكمة في الهند كانت تدعي نسبتها الى الآلهة •

والصنف الآخر : لم يتهيأ لهم من القوة والوسائل المادية ما يؤهلهم للقيام بهذه الدعوى الخطيرة واخضاع الناس لارادتهم، فتسلحوا بأسلحة من الدجل فعمدوا إلى وثن أو قبر أو كوكب أو شجرة ونادوا في الناس بأن هذا الهكم يقضي حاجتكم ويضركم وينفعكم وينصركم أو يخذلكم ، وجعلوا أنفسهم سدنة للأوثان ، وطلبوا الى الناس أن يجعلوهم وسيلة للوصول الى الأوثان وسيطروا بكل ذلك على عقول الناس وأموالهم •

ومن هذا النوع أيضاً ، الذين يحترفون الكهانة والتنجيم •

---

(١) سورة النازعات ـ الآية ٢٤ •

(٢) سورة القصص ـ الآية ٣٨ •

ومن هذا الصنف أناس ادعوا أنهم وحدهم القادرون على فهم الكتب المنزلة من عند الله يحلّون فيها ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون ومثال هؤلاء البابوية •

ج ـ التشريع للناس من دعوى الألوهية :

حين تقوم ألوهية الانسان على الانسان يفشو الظلم والجور والتكبر في الأرض بغير الحق وهنالك تنزع حرية الانسان وتغلب العقول وتغل فطرة الانسان وخصائصه الفكرية بأنواع الأغلال والقيود •

وألوهية الانسان للانسان أصل المصائب ومصدر البؤس والشقاء اللذين يصيبا الانسان • والسبيل الوحيدة للنجاة ، الكفر بالطواغيت جميعها والايمان بالله العزيز الحميد •

هذا الايمان هو الذي يحرر العقول والأفكار من أغلال العبودية التي يرسف فيها البشر وهو الذي يضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم •

والنظام الاسلامي ليس فيه لأمير من أمراء المسلمين ولا لمجتهد ولا عالم من علمائهم ولا لمجلس تشريعي ولا لجميع المسلمين في العالم أن يغيروا نصاً من نصوص الكتاب أو السنة في أي شأن من الشؤون ، أما الأمور التي لا يوجد بشأنها في الشريعة حكم صريح فمردها الى اجماع علماء المسلمين ومجتهديهم •

وعليه فإن مهمة الاسلام انقاذ الانسان من عبادة الانسان وانقاذ عقل الانسان من الضلالات والأوهام . وما عبادة الانسان للانسان الا تسلط على قلب الانسان وتسخير لعقله ، وقد خلق الانسان ليكون حراً ولتكون له قيمة الانسان . فاذا استعبد قلبه وسخر عقله فقد قيمته الانسانية . أدرك ذلـك أصحاب رسـول الله ادراكـا عميقاً وعبـروا عنه تعبـيراً جلياً حـين وقف أفراد عاديون منهم أمام رستم قائـد الفرس فقالوا له : **« جئنا لنخرج الناس من عبادة الناس الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام »** .

د ـ ليست حدود الله قيوداً لحرية الانسان :

قد يقول قائل إن الاسلام قد سلب الانسان حرية الفكر ، وكانت الدعوى التي قدمناها أن عبادة الله الواحد الأحد هي رد اعتبار هذا الانسان اليه وانقاذه من عبودية الفكر والجسم . والجواب على اعتراض المعترض أن تشريع الله لعباده ليس الغرض منه أن يسلب الناس حريتهم العقلية ، ولكن الغرض أن يجنبهم الخوض في مزالق الردى ومهاوي الضلال قروناً طويلة يتخبطون فيها ويتعثرون في تجاربهم ، وتؤدي بهم هذه التجارب الى دمار الأجيال ، ما ذا يكون لو ترك الناس لعقولهم وتجاربهم دون أي هداية ؟ ستغلب عليهم غرائزهم ويسود فيهم قانون الغاب ويظلون على ذلك دهوراً ، ثم قد يتاح لهم بعد ذلك أن يهتدوا الى شيء

من الخير وقد لا يتاح لهم ذلك • ان الانسانية مدينة للمعاني التي جاءت بهـا الأديان التي تدعو في أصلها الى شيء واحد ، مـن رحمة وعدالة وخير وانسانية •

لقد جاء في الدين الاسلامي مبادىء كما جاء في الأديان التي سبقته ، ولم يكن من الخير ترك هذا الانسان يكتشف هذه المبادىء بنفسه ؛ لقد هدي منذ أول الأمـر الى طريق الله والى طريق الخير والسعادة وحذر السبل الأخرى ، ولقد كانت هذه المبادىء أساس انسانيته فلا يصلح أن يبقى بدونها أي حقبة من الزمن ، ولقد كان ذلك من تمام رحمة الله بعباده ، ومما تستوجبه صفاته العادلة الرحيمة جل شأنه •

هذه المبادىء كما ذكرنا لا يصح ترك البشر يتخبطـون بشأنها ولذلك بعثت الرسل هادية للناس •

ومن أمثلة فشل البشر في التشريع ـ حتى فيما يجب أن يحرم ـ تحريم الخمر في أمريكا ؛ ذلك أنـه لم يرتكز عـلى أساس الإيمان بالله واليوم الأخر •

لقد أيقنت الأمة الأمريكية في يوم من الأيام من الوجهتين العقلية والعلمية ، أن الخمر مضرة بالأجسام مفسدة للقـوى الفكرية هادمة لبناء المدنية الانسانية ، فأصرّ الرأي العام الأمريكي على حكومته أمام هذه المفاسد أن تضع قانوناً يمنع شرب الخمر ، فقررت الحكومة وضع قانون يمنع الناس من شرب الخمر ؛ ولكن ما الذي تم بعد ذلك ؟

إن الذين وضعوا القـانون أنفسهم ، لم يلبثوا أن طفقوا يبحثون عن الوسائل التي يصلون بها الى الخمر من الطرق الخفية المستورة ، وبلغ التفنن في ذلك مبلغاً عظيماً وأصبح عدد الذين يتعاطونها أكثر بكثير مما كان من قبل وفشا بسبب الضغـط والاكراه والوسائل الخفية أنواع من المنكرات والفواحش لم تكن معروفة من قبل . وكل ذلك قد اضطرهم الى نقض ماأبرموه وحل ما عقدوه ، وعادت الضارة عندهم نافعة . وهنـا يتساءل الناظر كيف عادت الضارة نافعة أكان ذلك بدليل علمي أم عقلي ؟

انها النفس الأمارة بالسوء واتخاذ الهوى الها ، وانه لمثال بعيد المرمى يضع بين يدي المتأمل المنصف نموذجاً مـن نماذج تصرفات هذا الانسان حين يريد أن يشرع بعقله ، وأن تكـون قوانين نظامه في صيانة حياته تبعا لهواه .

وانها لتجربة قامت بها أمة من أعلى الأمم شأناً في التقدم والحضارة على مرأى منا ومسمع ، وفي التاريخ تجارب كثـيرة توضح لنا أن الانسان لا يستطيع أن يستقل بالتشريع لنفسه ؛ ذلك أنه معرض لخطرين أولهما عبادة الآلهة الكاذبة ، وثانيهما النزعات الشيطانية الكامنة في نفسه والشهوات الجاهلية ، ولذا كان لا بد من هداية للانسان منذ بدء أمره وتحديد حريته بالحدود التي تصلح لفطرته واعلامه بأن هذه الحدود من عند علام الغيوب الذي يعلم ما يصلح له . فاذا انتقلنا بعد هذا الى تحريم الخمر

لدى المسلمين ، وقد كان العرب شديدي الولوع ، عظيمي التعلق بها ، فلما نزل تحريمها قال عمر « انتهينا يارب » وقال أنس : « حرمت ولم يكن يومئذ عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر . قال : فأخرجنا الحباب الى الطريق فصببنا ما فيها ، ولقد غمرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً كلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها » . (انظر كتاب نحن والحضارة الغربية للأستاذ أبي الأعلى المودودى ص ٤٣ بين الشريعة الربانية والقانون الوضعي) .

ولنضرب أمثلة يسيرة لهذه الحدود التي شرعها الله :

١ ــ مثل من الحياة الاقتصادية :

ان الحياة الاقتصادية إن جعلت مطلقة امتلأت الأرض شرورا وانتهى الأمر الى نمو الرأسمالية وتسلط طبقة من الشعب على طبقة أخرى ثم تنتهي هذه الحال الى تبرم الطبقة المستعبدة وثورتها ، وكان خاتمة المطاف دكتاتورية العمال وسيطرة الشيوعية .

ولذا فقد جعل الاله الحكيم لنظام الحياة الاقتصادية حدوداً ، وهي اثبات حق الملكية الفردية مع فرض الزكاة وتحريم الربا والميسر وتحريم الاحتكار وتحريم كسب المال من طريق غير مشروعة ، وكل هذا ينتهي الى اتزان في المجتمع وانسجام كامل فيه .

٢ ـ والمثل الثاني من نظام الأسرة ، وقد حد الله فيه حدودا من حجاب شرعي وقوامة للرجل على المرأة وبيان حقوق الرجل والمرأة والأولاد وحدود الزنا والقذف ، كل هذه لتنجو الأسرة من الأخطار التي أصبحت تحيق بها في المدنية الغربية •

٣ ـ المثل الثالث صلة الأفراد بعضهم ببعض ، وصلة الأفراد بحكوماتهم وولاة الأمر فيهم ، وصلة الأقوام بعضهم ببعض في حالات السلم والحرب مما يكفل للبشرية السلام الحقيقي الذي تنشده •

هـ ـ الحدود الاسلامية تشمل فروع الحياة بأكملها :

تحيط التربية الاسلامية بالحياة الانسانية في كل فروعها ، وتشمل حياة الفرد في كل صلاته وتنظم حياة الجماعة في كـل مناحيها وليس لأحد أن يقوم في وجهها ويستثني أمرا واحدا من أموره قائلا ان هذا الأمر شخصي ليس للحكومة أن تدخل فيه •

ان غاية الحدود الاسلامية حفظ الناس من اعتداء بعضهم على بعض وحفظ حرية الناس والدفاع عن كيان الأمة ثم اقامة نظام العدالة الاجتماعية واجتثاث أصول الشر والدعوة الـى الخير ، وهي في سبيل ذلك تسلك وسائل الدعوة الى الخير في كل سبلها فتدعو العلماء الى تبليغ الدعوة الصالحة وتدعو الآباء للعناية بأبنائهم ، وتوجد الجو الاجتماعي الصالح وتستعين على كل

ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة واقامة الحدود وانزال القصاص بالذين يستحقون القصاص • قال تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس »(١) •

ولقد أشارت الآية الى القوة المادية حين يقتضي الأمر استعمالها في سبيل اقامة القسط بين الناس بعد البينات والكتاب والميزان الذي يشير الى المقاييس الدقيقة والمعايير الصادقة •

هذه هي التربية التي تتدخل في شؤون الفرد وشؤون الجماعة وتنظم أمور الأمة جميعها •

و ـ عقيدة التوحيد تحمّل كل فرد تبعة حماية الرسالة :

الحاكم الحقيقي في الاسلام هو الله وحده جل شأنه ، وموقف الذين يقومون بتنفيذ القانون الالهي في الأرض ـ وهم أولو الأمر ـ ليس لهم الا موقف النائب عن الحاكم وهؤلاء خلفاء الله في أرضه ، وكل من قام بالحكم في الأرض تحت ظل الدستور الاسلامي فهو خليفة الله جل شأنه والله جل شأنه هو الحاكم لا حاكم سواه • ويلاحظ أن النصوص الاسلامية تتجنب لفظة حاكم فلا تصف بها الأمير ولا الخليفة وتجعلها لله وحده واللفظة المختارة في هذه النصوص هي لفظة الاستخلاف •

---

(١) سورة الحديد ـ الآية ٢٥ •

قال تعالى : « **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** » (١) .

وفي الآية الكريمة لفتة دقيقة فهي تجعل خلافة المؤمنين هذه في الأرض خلافة عامة تشمل المؤمنين جميعا فالوعد للذين آمنوا جميعا لكل من صدق عليه وصف الايمان ، والاستخلاف في الأرض لهم جميعاً ، وفي هذا المعنى اشارة واضحة الى أمرين اثنين :

اولهما أن هذه الخلافة لا يستبد بها فرد من المؤمنين ، بل هي مشتركة بينهم جميعاً . فكل مؤمن خليفة من عند الله وكل واحد مسؤول أمام ربه عن هذه الخلافة كما جاء في الحديث : « **كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته** » فليس أحد منهم في هذا الشأن وفي جميع الشؤون الاجتماعية ، بأحط منزلة من الآخرين . قال عليه الصلاة والسلام :

« **المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم اقصاهم ، وهم يد على من سواهم ، الا لا يقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد في عهده** » رواه أبو داود والنسائي ورواه ابن ماجة عن ابن عباس .

الثاني أن المسلمين في هذه الخلافة جماعة واحدة ويد واحدة وجسم واحد ، وليس معنى انتقاء واحد من المسلمين

---

(١) سورة النور ــ الآية ٥٥ .

ليقوم بشؤون المسلمين أن الآخرين أصبحوا في حل من الاهتمام بشؤون الأمة وضاعت مسؤوليتهم ، بل الجميع مسؤولون على سبيل التعاون والتآزر والتكامل والتكافل •

ان تربيــة الاسلام هي تربيــة تنميــة روح المسؤولية ، وللقيادة مكانتها وحبها واحترامهــا ، ولكن الاسلام أوجــد الانسجام الكامل بين طاعــة القيادة واحترامها وامتثال أمرها ما دامت تمثل الفكرة الاسلامية تمثيلا صحيحا وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وبين تنمية روح النقد في الأفراد وروح حمل التبعة •

ز ــ طاعة واعية لا يذوب فيها الأفراد في القيادة ، وجهاد في سبيل العقيدة :

وهكذا لم تكن تربية الاسلام تربية أتباع تذوب شخصيتهم في شخص القائد ، ويزداد ارتباطهم بالقائد وتعلقهم به وثقتهم به حتى تضيع بأنفسهم اذا فقد القائد ، وليست مــن التربية التي يصبح حب القيادة فيها هوى يعمي ويصم ، ولكنه حب واع يقظ ذلك أن القيادة تحب وتطاع بمقدار امتثالها لأمر الله وتعلقها به •

وهكذا كان عتاب الله جل شأنه للمؤمنين في غزوة أحــد منبهاً إلى هذه المسألة لافتاً الأنظار إليها مقرراً أن تعلق المؤمن إنما هو بالمبدأ والفكرة والعقيدة ، وأن جهاد المؤمن إنما هو في سبيل المبدأ والعقيدة ، فاذا فقد القائد أو غاب أو مات أو قتل ، لــم

يصح أن يبطىء المؤمن أو يتقاعس أو يتخاذل عن نصرة الدعوة والموت في سبيلها •

قال تعالى : ((**وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين**))(١) • والانقلاب على الأعقاب كناية عن ترك الدعوة أو فتور العزيمة عن الجهاد في سبيلها • ومعنى الآية الكريمة أن من كان على يقين من دينه وبصيرة من ربه ، لا يرتد بموت الرسول وقتله ، ولا يفتر عما كان عليه ؛ ذلك لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، وكما قال أنس بن النضر رضي الله عنه عم أنس بن مالك ــ يوم أحد حين أرجف بقتل رسول الله عليه السلام وشاع الخبر وانهزم المسلمون وبلغ اليه تقاول بعضهم : ليت فلانا يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان • وقول المنافقين : لو كان نبياً ما قتل ــ قال : يا قوم ان كان محمد قد قتل ، فان رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ، قوموا فقاتلوا على ماقاتل عليه وموتوا على ما مات عليه • ثم قال اللهم اني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شدّ بسيفه وقاتل حتى قتل رضي الله عنه •

---

(١) سورة آل عمران ــ الآية ١٤٤ •

والحديث السابق أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ــ باب قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » ؛ ونص الحديث ما يلي :

(عن أنس رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ؛ فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم اني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء ــ يعني المشركين ــ . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، اني أجد ريحها من دون أحد .

قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ، ما صنع .

قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثّل به المشركون فما عرفه أحد الا أخته ببنانه .

قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه .« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...») .

كانت تربية أصحاب رسول الله تربية الطاعة التامة للقيادة ، ولكنها في الوقت نفسه تربية على القول بالحق والجهر به أينما كانوا لا يخشون في الله لومة لائم .

عن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » . (والحديث متفق عليه) .

فهذه التربية التي تلتزم الطاعة في المعروف ليست طاعة عمياء ولكنها طاعة واعية مبصرة تعرف الحق وتلتزم الطاعة في سبيله وتقول بالحق وتجهر به أينما كانت لا تخشى في الحق لومة لائم .

في هذه التربية تنمو لدى الأفراد روح طلب الحق وإيثاره على الآباء والأبناء والأهواء ، ويتبع ذلك قوة شخصية الأفراد واضطلاعهم بحمل التبعات والمسؤوليات .

ح ـ أمثلة من تربية روح النقد وعدم المغالاة بشأن القيادة :

لقد حرص محمد عليه الصلاة والسلام أن يعلم أصحابه أنه إنما هو بشر يرضى كما يرضى البشر ويسخط كما يسخط البشر ، ويخطىء ويصيب كما يخطىء البشر ويصيبون ، كل ذلك كيلا يغالي أصحابه في تعظيمه فيرفعوه فوق مرتبة البشرية كما حصل لمن سبقه من الأنبياء ؛ وهذه النظرة مقرونة بالبصيرة الواعية ، وتلك النظرة المغالية مقرونة بالأوهام والخيالات والبصيرة المطموسة .

وفي سبيل هذه التربية لم يكن رسول الله عليه صلوات الله

يقطع بأمر دون استشارة أصحابه ، ففي بدر يقف عليه الصلاة والسلام حينما أتاه خبر مسيرة قريش الى المسلمين فيستشير من معه من أصحابه فيتكلم المهاجرون كلاماً حسناً وكان منهم المقداد بن عمرو ، فلا يكتفي عليه الصلاة والسلام ولكنه يظـل ينظر الى القوم ويقول لهم : « أشيروا علي أيها الناس » حتى يقوم سعد ويقول مقالته الطيبـة فيقول عند ذلـك رسول الله : « سيروا وأبشروا فان الله قد وعدني احدى الطائفتين ... والله لكأني أنظر الى مصارع القوم » .

والرسول عليه صلوات الله يستشير أصحابه **ويدع رأيه لرأيهم** . ففي بدر أيضاً يتكلم الحباب بن المنذر بشأن المكان الذي ينزلون فيه فينهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتحول الى المكان الذي أشار به الحباب رضي الله عنه .

ويقترح سعد بن معاذ بناء العريش فيوافق عليه الصـلاة والسلام . وفي غزوة أحد يستشير رسول الله صلوات الله عليه أصحابه في الخروج لملاقاة العدو أو البقاء في المدينة وكان رأي كثير من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بدر الخروج ، ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله حتى وافقهم عليه ثـم ندموا وقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فان شئت فاقعد ، فقال عليه الصلاة والسلام « ما ينبغي لنبي اذا لبس لأمته (أي درعه) أن يضعها حتى يقاتل » .

وفي غزوة الخندق قبل رسول الله مشورة سلمان بحفر الخندق ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل الى جانب العاملين • روى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : « لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلد بطنه وكان كثير الشعر » •

وفي هذه الغزوة أرسل رسول الله الى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما في أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كي ينصرفوا عن قتال المسلمين فقالا له : يا رسول الله أهو أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء أمرك به الله ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء أصنعه لكم كي أكسر عنكم شوكتهم » ، وحينئذ قال له سعد بن معاذ : والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، فتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « فأنت وذاك » •

في كل هذه الأمثلة نرى تربية رسول الله لأصحابه واعترافه عليه الصلاة والسلام برأيهم وشخصياتهم ورضاه بصراحتهم وجرأتهم في الحق ، وهذه التربية تربية قادة يحملون التبعات لا تربية أتباع يتبعون كل ناعق •

ومن أمثلة هذه المواقف موقف الصحابي أبي حذيفة حين قال رسول الله في غزوة بدر : « من لقي منكم العباس بن عبد

المطلب عم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلا يقتله فانما أخرج مستكرها » ، فقال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشائرنا وتترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف •

انه لموقف يتجلى فيه الصدق والصراحة والجرأة وقد بلغت كل هذه غايتها ، وليس هذا الموقف الا لما عهدوا من رسول الله من حسن استقباله للقول الذي يندفع به صاحبه من قلب مخلص نقي وان كان شديداً قاسياً • لقد استقبل رسول الله الكلمة بحلمه وعفوه ، وتدخل عمر بشدته وبطشه فكفكف رسول الله من حدته ، وعاد صاحب الكلمة أبو حذيفة نادماً حزيناً وظل يقول الى أن مات : « والله ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً الا أن يكفرها الله عز وجل عني بالشهادة » •

ط ـ عقيدة التوحيد لا تفرق بين طبقات الأمة :

وهكذا كانت تربية محمد عليه الصلاة والسلام تربية لروح النقد وروح النظر في الأمور نظراً ثاقباً ، والصراحة بالحق والجهر به ، تربية تهدف الى انشاء قادة يستطيعون أن يضطلعوا بأعباء القيادة اذا فقدت القيادة • وتربية محمد عليه الصلاة والسلام هي القدوة الصحيحة الكاملة للتربية الاسلامية ؛ وكل تربية تبعد عن سبيل هذه التربية تعتبر تربية منحرفة بمقدار ابتعادها • في التربية الاسلامية يشعر كل فرد بأنه مسؤول عن

الدعوة الاسلامية حتى لو كان وحده ولم يكن هنالك أحد يعضده ، وكل فرد في الجماعة مسؤول عن وظيفته الخاصة ومسؤول أيضا عن سير الجماعة كلها ولأدنى فرد في هذه الجماعة أن يقف أمام أمير الجماعة أو قائدها ليدلي برأيه وليعارض أي رأي أو قول أو فعل يجد فيه خطأ .

ويترتب على ما سبق أن المجتمع الاسلامي ـ وحاله كما ذكرنا ـ لا يتسرب اليه فساد التفريق بين الطبقات وشرور الامتيازات التي يحصل عليها أناس في الحياة الاجتماعية بسبب الفوارق في النسب أو العشيرة أو القبيلة أو المال والجاه .

كل أفراد هذا المجتمع سواسية ليس لأحد فضل على آخر الا بسبب الكفاءة الشخصية والمزايا الخلقية ، وهذه هي الحقيقة التي أوضحها الرسول عليه الصلاة والسلام وبينها مراراً .
قال عليه الصلاة والسلام « **ليس لأحد فضل على أحد الا بدين أو تقوى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض الا بالتقوى** » .

ولما انضمت بلاد العرب كلها بعد فتح مكة الى الحكومة الاسلامية وانضوت كلها تحت لواء محمد عليه الصلاة والسلام ، قال عليه الصلاة والسلام لعشيرته الذين كانوا يومئذ أشرف العرب وأعلى طبقاتهم قال : « **يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء ، أيها الناس كلكم من آدم وآدم من تراب .**

لا فخر الأنساب ، لا فضل للعربي على العجمي ولا للعجمي على العربي ؛ ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . (الحديث في الجامع للترمذي وفي مشكاة المصابيح) .

ي ـ تكافؤ الفرص :

وفي مثل هذه التربية لا يحول حائل من جهة النسب أو أو المكانة أو الحرفة بين فرد أو جماعة وبين بلوغ ما تؤهله له كفاءته الذاتية وسجاياه وملكاته ، ولا يحال بين أي فرد وتنمية مواهبه هذه والبلوغ بها أعلى الدرجات . فلكل فرد من أفراد المجتمع أن يرتقي ما شاء الله له أن يرتقي ، ولكل فرد أن يبلغ ذروة ما يؤهله له ما حباه الله به من مواهب واستعدادات . والأمثلة الواضحة في هذا المضمار : الموالي وأبناؤهم ، فقد نصّبوا ولاة على الأقاليم وقواداً للجنود وقد اتبع أمرهم شيوخ البيوتات العليا الشريفة وعاشوا تحت ولا يتهم راضين غير كارهين ، وكذلك أصبح كثيرون ممن كانوا من قبل في مهن ضئيلة أئمة للناس ، وغدا النساجون والبزازون أئمة يفتون الناس ، وكل هؤلاء يعدون من علماء المسلمين ومشيخة السلف الصالح .

الخلاصة

ان دعاة الحرية أصحاب النظريات الجديدة التي تناوىء الأديان والذين يدعون أنهم يريدون انقاذ الانسان من جور الأديان ، قد أنقذوه من جور الكنيسة الى ظلم شبيه بظلم الكنيسة أو أشدّ منه ظلما ، ذلك أنهم استرقّوا عقل الانسان واستلبوا حريته • ولا بد من الاستشهاد بقول غربي منهم فهم أعرف بأنفسهم منا بهم • يقول الدكتور (براون) في كتابه (وسائل الاقناع):

« ان الفرد في الحكومات الحديثة واقع تحت سيطرة الفئة التي تملك القوة والتي تحاول السيطرة على ما يجري في نفسه ، والاستمرار في هذه السيطرة ومضاعفتها على مر الزمن • أما في ظل الحكومة الديموقراطية فالفئة التي تملك القوة هي أفراد الاتحاد الاقتصادي الذي تتجمع فيه المصالح التجارية ، وأما في ظل الدول الشيوعية أو في ظل كنيسة ذات سلطة ، فالتأثير مكشوف صريح غرضه نقل تعليمات الفئة الحاكمة وآراؤها الى الجماهير ، واستبعاد وجهات النظر المغايرة استبعاداً تاماً ، وكل ذلك يتم بوساطة الرقابة •••• ولقد أشار (جورج أورويل) الى أن الحكومة الشيوعية والكنيسة تتشابهان في نظرتهما الى خصومهما اذ تؤكدان أن الخصوم هم لا محالة في نقص في أحد

أمرين : إما نقص في التفكير أو نقص في الاخلاص ، أمـا أن ينجوا من كلا الأمرين فذلك محال ؛ ذلك أن الحقيقة في دعوى الشيوعيين قد ظهرت ، فلا يعرض عنها الا متهم في عقله أو متهم في إخلاصه ويترتب على هذا أن الكافر بدين هؤلاء اما مجرم أو أحمق ضعيف العقل ؛ والعلاج الذي يصلح له اما السجن والموت لغير المخلص ، أو نوع من التدريب يقوّم اعوجاج ضعيف العقل وينتزع الأفكار المجرمة من رأسه ليحل محلها نظاما فكريا جديدا.

ثم يقول الدكتور براون : « وبعد كل ما سبق فان المواطن الذي يعيش في ظل الشيوعية قد يشعر أنه أقل عرضة للتأثير فيه وفي أفكاره من ذلك الغربي الذي يتوجس خيفة مـن اولئك المتسترين الذين يحاولون التأثير فيه واستلاب عقله وهو غير شاعر بذلك . قد يبدو أن في هذا القول تناقضاً وليس كذلك لأن استعمال القوة في الدول الشيوعية أمر مكشوف عار وهذا يثير المقاومة ، ويقوي روح المعارضة . أما الحال في الغرب فهو على غاية من الكيد والمكر والخفاء » .

لم يشر المؤلف الى اليهود في الغرب وهم أقوى عنصر في هذا الكيد والمكر والخفاء ولعله يخشى شرهم .

كما يقول الدكتور براون أيضاً : « هذه هي صور الحكومة الحديثة في الأيام الحاضرة كما يعرضها نقادها ، وقليل أولئك الذين يجرؤون على انكار ما في هذا القول من عناصر صادقة » .

هذه حال الأفراد في الأمم الحديثة التي تزعم أنها تنادي بالحرية والانسانية • وخلاصة ما قاله الدكتور براون : إن الذي يعيش في بلاد شيوعية يكره على تقبل دين الحكومة سواء رآه حقا أم باطلا ، أما الذي يعيش في الغرب فهو أشد خوفاً لأنه يخشى أن يوجه وجهة لا يريدها وهو غافل لا يدري • هذه الحال تذكرنا بقول الله تعالى : **« ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق »**(١) •

ولنعد الى مبدأ الفطرة : يترتب على هذا المبدأ أن هذا الدين تقبل عليه القلوب السليمة وتطمئن اليه النفوس الخالصة ، ولذلك كان هذا الدين على حد تعبير الغربيين ديناً زاحفاً ، وكان ميل النفوس اليه أقوى من الميل الى أي دين آخر •

كنت في بلاد الانكليز منذ سنوات وذهبت في صباح يوم الى المشرف على الرسالة التي كنت أهيئها (الأستاذ آربري) فوجدته مغتماً وابتدرني بقوله : « ان صحف اليوم كلّها تتحدث عن انتصار الدعوة الاسلامية في البلاد الافريقية ، على حين أن الدعاة اليها من فقراء المسلمين الذين لا يكادون يجدون مايسترون به عوراتهم ، ودعاة النصرانية تمدهم الحكومات وتمدهم الهيئات بأحسن الرجال وأعظم الأموال » • وانتظر مني الأستاذ آربري

---

(١) سورة الحج ـ الآية ٣١ •

أن أقول كلمة أعلل فيها هذه الظاهرة • فقلت : ان الدين الاسلامي سهل ميسر ، تقبله النفوس وتميل اليه الطباع ؛ والدين النصراني معقد تعقيداً لا يرضى به قلب نقي • فقال صحيح •

هذا هو المبدأ الأول في كتاب الله مبدأ الفطرة ، الفطرة التي تصرخ بربوبية الله وتنادي بالعبودية له •

في مثل هذه التربية وفي مثل ذلك المجتمع الذي ينشأ فيه الأفراد على هذه القواعد الإيمانية ، لا يجد انسان أو جماعة سبيلاً الى الاستبداد بالأمر • ذلك لأن كل فرد من أفراد هذا المجتمع خليفة عن المجتمع مسؤول عنه ، رقيب على كل ما يجري فيه • وليس من حق أحد أن ينتزع هذا الحق من عامة المسلمين وينصب نفسه مسيطراً عليهم •

وكل فرد من أفراد المسلمين مسؤول عند الله عن نفسه مسؤولية فردية ، وعلى ذلك فلا بد أن يعطى كل فرد حرية تامة في حدود الأوامر والنواهي ليختار ما يشاء من خطة في حياته ، ويوجه مواهبه الى المضمار الذي يجد ميلاً اليه • فاذا حيل بينه وبين ذلك ، واذا منع مما يريد ووجّه الى ما لا يريد من قبل الأمير كان ذلك الأمير ظالما ، ذلك أنه لم يكن هنالك أثر من التقييد الاجتماعي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين •

وليس معنى ما سبق من اعطاء الفرد حريته في اختيار مضمار العمل الذي يريده اغفال جانب حاجات المجتمع وهدر مصالحه ؛

إنما الفرد في التربية الاسلامية يضع نصب عينيه مصلحة أمتـــه ويعيش من أجلها وفي سبيل خدمتها لأنفي ذلـــك رضوان الله وابتغاء وجهه .

وهكذا كانت التربية الاسلامية وسطا عادلاً ، فلا هـــي بالتربية التي تضيع فيها شخصية الفرد ، ولا بالتي يتعدى الفرد فيها حدوده بحيث يكون ضارا بالمجتمع . انها تربية توافق تام وانسجام كامل ، يتيسر فيها للفرد نماء قوته وتكامل شخصيته ليصبح أداة طيعة عاملة في سبيل ما فيه خير المجتمع وسعادته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	٨	تنفيذ	تنقذ
٢٢	١٠	« يهود عرب »	« يهود وعرب»
٣٥	١٠	سيلِ	سبيلِ
٣٥	١١	متاعَ	متاعُ
٣٧	١٨	تخضنع	تخضع
٣٩	١٩	أن	إن
٤٢	١٤	لعقيدة	للعقيدة
٤٧	٨	وألئك	أولئك